اقرأ

إبراهيم المصري

أغلال القلب

اقرأ

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

إبراهيم المصري

أغلال القلب

«مجموعة قصص مصرية تصور ألوانا من عاداتنا وتقاليدنا ، وتمثل الإنسان فى صراعه الأبدى بين الخيال والواقع ، والغريزة والإرادة ، والقلب والضمير».

اقرأ ٣٥٧

دار المعارف بمصر

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

اقرأ ٣٥٧ – سبتمبر سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع .

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

أغلال القلب

كان « حامد » سابحًا فى تأمل « زينات » ، غائبًا عن نفسه ، ناسيًا بنت عمه التى خطبها منذ أكثر من عام ، يستمتع بنشوة وجود زينات بقربه ، وهى تبتسم له فى ودّ وإقبال ، وتنظر إليه مع ذلك بعينين متفرستين هادئتين كأنها تتفرج عليه . . .

أهمل بنت عمه من أجلها ، وأبى أن يستعجل زواجه عندما عرف زينات واتصل بها .

وكان حامد شابًّا فى نحو الثلاثين ، منحدراً من أسرة ميسورة ، وسيمًا وأنيقًا ، مرهف الحس ، مضطرم العاطفة ، أولع بالأدب منذ نعومة أظفاره ، وانكب على مطالعة القصص والشعر . فاستبد به خياله الشعرى ، وضاعف من جموح تصوره . فشرع يبحث عن فتاة تجمع بين الجمال والعقل ، وتشاركه فى العاطفة والفكر ، وتمثل فى نظره مثل الأنوثة الأعلى . فلما لم يوفق ويئس ، خطب بنت عمه ، وظل متردداً فى عقد زواجه حتى التقى بزينات .

والحق أن زينات ، برغم أنها قد نشأت فى وسط فقير ولم تتلق تعليمًا عاليًا ، إلا أنها كانت ذكية ، بل متوقدة الذكاء، تنزع إلى التثقف بفطرتها ، وتتهافت على المعرفة والاطلاع ، وتستعير شتى المؤلفات من حامد، تقرؤها ، ثم تراسله وتكتب إليه ما استوحته منها ، ثم تزوره وتناقشه فيها ، وقد تتفوق عليه أحيانًا فى تعمق المعانى والمقاصد المنطوية عليها .

وكانت إلى ذلك امرأة جميلة لم تجاوز الثلاثين ، ذات وجه أبيض شفاف ، وعينين عسليتين لوزيتين ، وجبهة عالية مهيبة ، وأنف مستقيم وفم دقيق ، ورقة فى البسمات والحركات لا تفتأ تقابل بها حامد كى تشعره بأن صرامة الفكر لا تطغى على أنوثتها ، ولا تشوبها منها شائبة غلظة أو جفاف .

هذه المرأة التى تعرف إليها حامد منذ بضعة أشهر فقط فى بيت قريب له ، وتعرف أيضاً إلى زوجها وإلى أختها العانس « فوزية » التى تعيش معها ، هذه المرأة التى اعتاد هو أيضاً أن يزورها ، واعتادت هى أن تستقبله فى لهفة سواء أكان زوجها حاضراً أم غائباً ، هذه المرأة المتزوجة ملكت على الشاب عقله وقلبه ، وأنسته الفتاة المسكينة المنبوذة بنت عمه ، وأصبحت هى غايته وقبلته ، لا يستغنى عنها ، ولا يستطيع أن يعيش بدونها ، ولا يحتمل الحياة إلا إذا رآها ، وجلس إليها بمعزل عن زوجها وأختها ، وتملى من حديثها الممتع ، وعبّ فى جمالها الفتان .

وكانت هى أيضاً تستعذب محضره . فإذا طالت غيبته عنها سعت ليه فى مكتبه فى الشركة حيث يعمل ، أو بعثت إليه مَن يستقدمه من بيته حيث يسكن بمفرده بعد وفاة أبويه . فيبتهج هو ويفرح . فتبتسم له زينات ابتسامتها الرقيقة ، مرتاحة وراضية ، وتمضى فى النظر إليه بعينيها المتفرستين الهادئتين كأنها تتفرج عليه . . كانت تعلم علم اليقين أنه قد شغف بها . ولكنها كانت متحفظة ومتنبهة ويقظى ، لا تشعر

نحو حامد بأى حب ، بل بعاطفة أضمرت وأرادت ألا تجاوز أبداً حدود الود والعطف والإعجاب .

كانت امرأة شديدة الكبر ، تصطنع الرقة والدماثة إخفاءً لكبريائها ، وترتمى فى عالم المطالعة والفكر تخلصاً من همها ، وتلوذ بحامد وتهرع إليه فراراً من عذاب أليم تعانيه فى حياتها مع زوجها الذى اقترنت به منذ ثلاث سنوات ولم تعقب منه بعد خلفاً . . . وكان زوجها شوكت « بك » رجلا فى الخمسين ، من ذوى الأملاك ، أحبها وغض عن فقرها ، ورضى بأن تعيش معها أختها العانس المنكمشة المتطوية الصموت فوزية التى تعمل حائكة فى مشغل ، والتى يحز فى صدرها ويخنقها أنها قد بلغت السادسة والثلاثين ولم تتزوج .

وكان شوكت قد أخلص أول الأمر لزينات . ولكنه سرعان ما ارتد إلى طبعه المتقلب المتلون الشهوى ، فأسلس قياده لرذائل المترفين العاطلين أمثاله ، وانكب على الخمر ولا سيا النساء ، يستبدل واحدة بأخرى أظمأ ما يكون إلى التمتع ، وأبعد ما يكون عن الشبع والارتواء .

ولم يكن شوكت رجلاً جميلاً بل كان كما تسميه خايلاته رجلا فاتكاً . كان مديد القامة ، عريض المنكبين ، ذا وجه أبيض ضارب إلى الحمرة الداكنة ، وعينين مغروستين تحت حاجبين كثيفين . فإذا نظر إلى امرأة شع من عينيه بريق حاد قاتم الزرقة ، فبدا أشبه بقاطع طريق ، مغامر وجسور ، مستبسل ومستمتع ، فتؤخذ به النساء . فيستدرج

البعض منهن إلى الشقة الصغيرة التي استأجرها فى إحدى العمارات ، والتى لم يكن يعرف بها غير إنسان واحد هو سائق سيارته .

فزينات المتكبرة التى أيسرت بعد عسر ، والتى يميزها الجمال والذكاء كانت تتفطر وتتمزق كلما قارنت بين جمالها وذكائها ، وبين النساء المتبذلات الرخيصات اللاتى يسعى وراءهن زوجها .

والواقع أنها كانت تحب هذا الزوج الخائن المستهتر حباً مبرحاً غلاباً عاتياً . فكان يهولها أن تتهالك النساء عليه ثم تعجز هى عن امتلاكه ، فتأبى إلا أن تمعن فى الاستمساك به ، وفى محاولة تبديل أخلاقه وسلوكه ، عساها أن تقهره فى النهاية وتحوزه وتفخر أمام الجميع بأنه أصبح لها وحدها . . . ولكنها كانت تأخذه بالرقة والدماثة فيهزأ بها ، وتجتهد فى رده عن غيه بالعقل فيسخر منها ، وتتبرج له تبرج الغانيات فيصد عنها ، وتفقد صوابها أحياناً وتكتب له وهو فى بيتها رسائل تسترحمه فيها وتبثه حبها وعذابها ، فيلقى هو بالرسائل فى درج مكتبه مستغرباً ومتهكماً . فتضيق هى ذرعاً به ، وتنفجر عليه غيرتها فى ثورة عارمة . فيهز كتفيه ويضحك ثم يقبلها . فتفرح وتأمل وتهدأ فترة كى تعود إلى سابق جهادها وصراعها . . .

ومع ذلك فهى لم تيأس من التغلب يوماً على زوجها ، إذ كان شوكت برغم زهده فيها وخياناته لها ، لا يفكر لحظة فى طلاقها ، بل يضن بها ، ويباهى أمام الناس بجمالها وثقافتها ، ويعلم أنها متفانية فى حبه ،

وأنها مستقيمة وشريفة ، لا خوف عليها من أى رجل تتصل به فى الخارج أو تستقبله وتنفرد به فى بيتها .

بيد أن هذا الاطمئنان الأنانى ، هذه الثقة الغاشمة ، هذه الخيانات المتعاقبة مقرونة بما كانت تحتمله زينات من نبذ وإذلال ومجاهدة عنيدة لتقويم أخلاق زوجها ، كل هذه العوامل أرهقتها ونغصت عليها حياتها . فعصف بها الكبر والحنق ، وأحست أنها فى حاجة إلى صديق ، صديق يفرج عنها بالصداقة فقط . . . لا . . بل يحبها . . . كانت تتلهف على رجل يحبها ، ويتشبث بها ، وتثأر بحبه الكامل المطلق من الجفوة المثيرة التى يقابلها بها زوجها . فأضمرت لو ظفرت بهذا الرجل ، بهذا الصديق ، ثم استشعرت منه ميلاً إليها ، أن تتسلل إلى قلبه شيئاً فشيئاً ، وأن تضرم فى صدره نار حبها ، ثم تتمنع عليه وتعذبه ، كى تنعم بتوكيد سلطانها ، وتستوثق من قوة فتنتها وإغرائها ، فتتحول بهذه القوة وتسلطها على الرجل الذى تهواه والذى هو زوجها . . .

وهكذا استخدمت سلاح الفكر وتقربت إلى حامد المولع بالقصص والشعر . ولما كان حامد الخيالى المثالى يطمع فى أن يجعل من الخيال واقعاً ، ومن الشعر حقيقة ، ومن المرأة جمالاً وثقافة وفكراً ، فقد رأى فى زينات ضالته المنشودة وحلمه المبتغى . فأحبها حباً عميقاً غريراً ساذجاً ، واعتقد أنها هى أيضاً قد أحبته ، ووجدت فيه صنو عقلها وروحها ، ولم يعد فى مقدورها هى الأخرى أن تستغنى عنه .

على أن حامد مع حبه المثالى لزينات كان رجلاً كبقية الرجال . كان يشتهيها ويتعذب . أما زينات فكانت تقبل عليه ثم تعرض ،

تستفزه ثم تروغ منه . فيلتمس هو ويتوسل . فتخاف هى أن تضعف وتسلم . فتسرع وتضبط حواسها وتتحفظ . فيعجب حامد بتحفظها ، ويستنكر منها فى الوقت نفسه كيف تعذبه على هذه الصورة وهى تراه يهيم فى حبها متولعًا متحرقًا كالظامئ المجهد الهائم فى قفر ، ينبثق الماء فجأة أمامه ، فيعجز عن بلوغ مسراه ولا يستطيع أن ينقع غلته منه ولو برشفة واحدة .

* * *

وها هو ذا حامد فى بيت زينات ، جالس تجاهها ، يسبح فى نشوة وجوده بالقرب منها ، ثم يثور ثائره بغتة فيقبض على يدها ويصرخ فيها نافد الصبر : أين هو زوجك ؟ . . تقولين إنه دخل البيت فجر اليوم ولم يشأ أن يوقظك فنام فى حجرة مكتبه بعد أن أمضى ليلة أمس ولا شك مع غيرك . . ولكننا الآن فى مغرب النهار وهو ما يزال نائمًا . . . ينام النهار ويسهر ويعربد فى الليل ، وترضين أنت بهذا ؟ . . أين هو كبرك ، أين هى عزة نفسك التى تعذبنى أنا الذى أحبك وأخلص لك ؟ . . . انفصلى عن هذا الرجل المستمتع الخائن وأنا متأهب للتخلى عن ابنة عمى والاقتران بك !

ونهض لينصرف . فخشيت زينات أن تفقده . فأجلسته عنوة ، وقالت وهى تلاطف خده بأناملها : أمهلنى بضعة أسابيع أيضًا . . . إن شوكت يخوننى ومع ذلك فهو لا يريد أن يطلقنى . وأنا مذ عرفتك أنا صبه العداء وأسمم حياته كى أدفعه دفعًا إلى كرهى والتخلص منى . . .

ورفعت رأسها فى شموخ وأردفت : وإذا كنت أتمنع عليك فذلك لأنى لا أريد أن أسقط فى عينك . . . لا أريد أن أهبك نفسى قبل الزواج وإلا اعتقدت أنى كنت لآخرين من قبلك . . . فاصبر قليلاً واحتمل إذا كنت حقًّا تحبنى . . .

وأهاجت عامدة أعصابها ، وأطلقت بعض الدموع وجعلتها تتحير فى عينيها فذعر حامد ، وطيب خاطرها ، وانحنى وقبل يدها فى ولع وشكر ونهض . نهض ولكنه توقف . توقف إذ سمع حركة خفيفة خلف أحد الأبواب لم تتنبه إليها زينات . فخيل إليه أن شوكت قد صحا . فأبى أن يلتقى به ، واتجه نحو باب الصدر وتبعته المرأة . غير أنها لم تكد تبلغ الردهة الصغيرة التى تفصل بين مخدعها ومكتب شوكت ، حتى انتهزت الفرصة لتمضى فى تنفيذ خطتها . فأرادت أن يعلم زوجها أن حامداً كان الآن أيضاً بمفرده معها ، وأن يزداد زوجها يقيناً بأن حامداً يحبها ، وأن يعتقد أنها قد تحب حامد ، وأن يتأثر وينفعل وتلتهب فيه مشاعر الغيرة والاستنكار والنخوة ولو بضع لحظات. ففتحت زينات باب حجرة المكتب ودخلت. بيد أن حامد لم يكد يلقى على الحجرة نظرة حتى تقبضت عضلات وجهه وجمد . كان شوكت منطرحاً على مقعد مستطيل ، مشوش الشعر ، محتقن الوجه ، منتفخ العينين والخدين ، مستغرقاً فى الرقاد أشبه بجثة ، وبالقرب منه وعاء عميق ملىء بما أفرغه فيه من جوفه بعد سهرة

الأمس التي التهم فيها ولا ريب كمية كبيرة من الطعام ، واجترع كمية أكبر من الخمر .

وكان منظر الرجل وهو ميت الرأس ، مفتوح الذراعين ، مدلى الساقين ، يثير الاشمئزاز والرعب . فهتف حامد : أهذا هو زوجك ؟! ثم

فأسرعت المرأة وحملت الوعاء وخرجت به دون أن تنادى الخادم ، ثم عادت واندفعت لتوقظ زوجها . فاعترضها حامد وأبى إلا أن ينصرف ، ولكنها صاحت بشوكت أن حامداً هنا وأنه يحييه . فاستيقظ الرجل وتململ وغمغم : حامد هنا ؟ . . . أهلا وسهلاً . . . كيف أنت يا حامد ؟! فوزية . . . أين فوزية ؟ خرجت ؟ . . . طيب . . .

وانكفأ رأسه على الوسادة وغلبه النوم . فاكفهر وجه زينات ، ودفعها غيظها من زوجها الذى لم ينفعل ولم يكترث لوجود حامد ، إلى مضاعفة رغبتها فى التمسك بالشاب والحرص عليه . فلكى تطمئنه وتذكى فيه الحب وتجدد الأمل ، أشارت إلى زوجها فى ازدراء وقالت : دعه ينام . دعه يمعن فى رذائله . وأنا ، أنا سأنغص أيضاً حياته وأدفعه دفعاً إلى الطلاق . وهكذا نتخلص نحن منه ونستريح ! . . .

فتهلل وجه حامد ، وانصرف مثلج الصدر قريراً ، يردد كلمات زينات ، ويروض نفسه على التحمل والصبر ، ويتعلل بأمل لا بدّ أن يتحقق فى مستقبل زاهر وقريب .

* * *

وكان قد هبط الليل ، وهب النسيم فى الخارج نديّاً منعشاً كأنه

يشارك حامداً فى فرحته . فابتسم الشاب لأمله ، ومط أعضاءه فى عزة ، وأخذ يصفر ويدندن . وفجأة وبينما هو يجتاز إحدى العطفات ويوشك أن ينطلق فى الطريق العام ، ترامى إلى سمعه وقع خطوات تتعقبه . فالتفت مستغربًا ، فأبصر نفسه وجهاً لوجه أمام العانس المنكمشة المنطوية الصموت فوزية أخت زينات . فأجفل وحياها ومشى . ولكنها لحقت به ، ومشت بجواره ، وظلت تلتقط أنفاسها وتختلج .

وكانت فوزية فتاة مهزولة البدن ، سمراء اللون فى شحوب ، ذات فم عريض وأنف قصير . ولكنها كانت ممشوقة القد ، سوداء العينين ، واسعة الحدقتين ، غزيرة الشعر ، تحمل فى يدها على الدوام منديلا أبيض رسمت عليه ورود صغيرة حمراء ، لا تفتأ تلوكه بين أصابعها كلما تحدثت أو فكرت أو ضاقت ذرعًا بحظها .

ولبثت تمشى بجوار حامد وهو متأفف يهم بأن يعتذر إليها وينطلق . غير أنها استوقفته وقالت : لماذا تنفر منى ؟ . . . لست دميمة إلى هذا الحد . . . نعم . أنت تنفر منى . . . . ومن جميع النساء . . .

وأردفت : بقدر ما تحبها هى ! . . .

فانتفض الشاب . فلم تمهله وقالت : سمعت الآن كل ما دار بينكما من حديث . . .

فحملق فيها حامد دهشًا وساخطًا وقال : إذن فتلك الحركة ؟ . .

كنت أنت التى تتسمعين علينا خلف الأبواب ؟ . . . ولكن ما شأنك بنا ، وما الذى يدفعك ؟ . . .

فاستطردت الفتاة وهى ترتجف ومنديلها يتلوى بين أصابعها : أريد أن أفتح عينيك . . . أن أبصرك بأنك واهم . . . مخدوع . . . وأن زينات إذا كانت تحبنى أنا أختها فهى يمكن أن تحبك أنت ! . . .

وفاض بها الحقد وصاحت : إنها تحتقرنى . تعيرنى بعنوستى . تتفضل علىّ بالحياة فى بيتها لتذلنى . تزهو علىّ لأنى عاثرة الحظ ولأنها هى قد فازت بزوج ثرى . . . وكما أنها تقسو علىّ كذلك هى تقسو عليك دون رحمة وأنت لا تشعر . . . ولكنها هى القاسية ذليلة ، هى المكتفية محرومة ، هى الغنية فقيرة ، فقيرة لأنها تتعذب فى كبرها ، فقيرة لأن لا ولد لها ، فقيرة لأنها تحب رجلاً لا يحبها ! . . .

فوجم حامد وصرخ : كذب . . . رجلاً آخر . . ومن ، من يكون ؟ . . .

فقالت الفتاة : إنه زوجها . هو الذى تحبه . تحبه إلى حد العبادة . ذلك السكير الوقح الدنىء الذى لا يعف عن امرأة مهما كانت ، والذى كثيراً ما يلاحقنى أنا أخت زوجته بنظرات جائعة مروعة ، أتمنى حياله لو استطعت أن أجد فى ربحى من عملى ما يكفينى كى أفر من بيته ومن امرأته وأعيش فى غرفة على سطح عمارة أوفى بدروم تحت الأرض . . هو الذى تحبه ! . . لا تصدقنى ؟ . . . إذن فخذ . . . خذ واقرأ . . . أنت تعرف خط زينات وأنا أعلم أنها تراسلك . فاقرأ الآن هذه الرسالة

العجيبة . . . رسالة من رسائل اعتادت زينات أن تكتبها لزوجها ، لزوجها نفسه ، كلما خانها وعذبها وأذلها ، واعتاد هو أن يلقى بتلك الرسائل فى درج مكتبه مستهتراً وساخراً . اقرأ رسالتها هذه ، وستعلم منها كل ما خفى عنك . . . . .

فاختطف حامد الرسالة وقال وهو يهدر : ولقد اجترأت أنت وسرقتها ؟ ... كنت جاسوسة وأيضاً سارقة ؟ ...

فصاحت الفتاة : ثورة منى على قسوة المرأة ونفاقها ، وخدمة لك يا حامد وشفقة عليك . . . لا تنفر منى هكذا ... لا تبغضنى ... اقرأ الرسالة وردها إلىّ واكتم كل شىء وارحمنى ، وإلا طردتنى زينات من بيتها وشردتنى وأنا بعد لا أستطيع أن أعيش معتمدة على عملى وربحى .

وتهدج صوتها تهدجاً مريراً ، وأردفت وهى تكاد تقطع منديلها : ثم ابتعد . . . ابتعد عن زينات . . .

وتجمع كيانها كله واستقر على الشاب فى نظرة عميقة وتائهة . ثم سقط رأسها بغتة على صدرها كأنما قد فصلته يد مجهولة وباطشة . فارتعد حامد وظل لحظة يتأملها . ثم تشجع وبسط الرسالة وقرأ . وما إن أنعم النظر فيها وتبين له من عباراتها أنها رسالة حب قاهر وأنها كتبت لشوكت منذ يومين فقط ، حتى أحس كأن مخلباً ضارياً ينشب فى عنقه ، وكأن قلبه يعتصر فى صدره ، وكأنه يرى الأشياء والأشخاص من خلف ضباب . فرد الرسالة إلى الفتاة ، ونظر إليها مخبولاً كأنه يريد أن يقتلها. ثم دفع بها عن طريقه ، واستجمع قواه ومشى . مشى وفكره يلهث

كأنفاسه . مشى كمن به سعر مكبوت . مشى وهو يتصور غريمه وعدوه منطرحاً على الفراش . مفتوح الذراعين ، مدني الساقين ، وبالقرب منه الوعاء القذر العميق تحمله زينات . فغلى دمه ، وتصاعدت من صدره موجة التقزز مقرونة بشهوة ثأر وتنكيل وإجرام . فتشنجت أعضاؤه ، وخاف من عنف ثورته ، وارتمى فى الطريق العام ، وظل يمشي ويختلط بالناس عساه أن يهدأ ويرتد إلى صوابه . وعندئذ ، وبينما هو يمشي ، تولته رجفة وتوقف . توقف إذ لاح له الرجل ، نفس الرجل . شوكت ، مقبلاً عليه بوجهه المحتقن ، وعينيه المغروستين تحت حاجبيه الكثيفين ، وقد تجمل وتأنق وتأهب لقضاء سهرة الليلة . . .

واتجه الرجل نحو حامد مبتسماً وصاح : لماذا أسرعت بالذهاب ؟... أما كان يمكنك أن تبقى فترة أيضاً مع زينات لتسليها ؟ ... عد إليها ... أرجوك ... حرام عليك ...

وقهقه فاتحاً شدقيه واستطرد : أم أنك قد تغيرت يا حامد وأصبحت مشتاقاً إلى الدنيا ؟ . . . الدنيا يا عزيزى أجمل من الحب ... أجمل وأرحب وأمتع ... الدنيا هى الهواء الطلق ، أما الحب فهو الانزواء الخانق ... أليس كذلك ؟ ... ها ... ها ... ها ...

وطوق الشاب بذراعه وأسر إليه : أتظن أن المرأة يمكن أن تحب ... أن تخلص للرجل ؟ ... كيف يمكن أن تخلص المرأة للرجل . هل هى تخلص لموضة الموسم الراحل متى ظهرت موضة الموسم الجديد ؟... ها ... ها ... ها ... تعال معى إلى الدنيا ... تعال نسهر ونأكل

ونشرب ونتمتع ... انظر إلى هذه الحسناء ... ألا تشبه ، كما يقول الأدباء أصحابك ، غصن البان فى رياض الجنان ؟ ... ها ... ها ... سأتبعها ... سيارتى فى الانتظار عن قرب ... الحق بى ... لا تريد؟... على كيفك ... باى باى ...

وانطلق مصعراً خده ، متخطراً فى مشيته ، واختفى . فتفاقم فى نفس حامد شعور التقزز والسخط ، وانصب على المرأة التى كان يؤمن بأنها الصدق حياً والوفاء ثابتاً والإباء مجسداً ، وإذا بها تسقط وتكتب تلك الرسالة الذليلة المستجدية ، وتنافق وتخدع لأنها تعشق هذا الرجل ... كيف ، كيف يمكن أن تكون المرأة ممتازة بالجمال والعقل ثم تهوى على هذه الصورة ، وتنفصم شخصيتها وتصبح ذات وجهين ؟ . . . نعم . إنها تحبه هو وتستخدمنى أنا . أنا الموكل بأن أضاعف قوة حبها له ، وأوقد النار فى أتون هيامها به ، النار التى اكتسب هو مناعة ضدها والتى ترتد إلى وأحترق بها أنا ! . . . لا . لن أكون طعمة للمرأة ووسيلة لمآربها . لن أتصل أبداً بها . سأنتزعها من فكرى . سأقتلعها من وجدانى وخيالى . سأقتلها فى قلبى وإلا فقد أجن وأقتلها بيدى !

واتجه صوب منزله وحاول إن ينام . ولكنه ما إن تمدد فى فراشه حتى استوت أمامه زينات . فنهض مخنقاً وأراد أن يخرج . بيد أنه لم يستطع . امتلأت الحجرة بهيكل المرأة . انتشر فيها صوتها وحديثها وذلك الجو المتقد الحار الذى كان ينبعث من مجرد وجودها . فدب الذعر فى قلب حامد . أحس أنه فى الحجرة سجين ، وأنه بالرغم منه يستعذب سجنه ،

وأن السجن قد بات رحبة فسيحة زاخرة بالحياة يمرح فيها هيكل زينات فثار مع ذلك على وهمه ، وارتدى ثيابه وهم بالخروج . بيد أنه لم يكا يتصور زحمة الشوارع التى لا بد أن يغيب فيها هذا الهيكل الفاتن حتى ارتد إلى عزلته ، واندمج فى طيفه ، وظل مؤرقاً ومسلوباً لا يغمض له جفن .

وأشرقت عليه شمس اليوم التالى وهو فى عمله مشتت الذهن منهوك الحواس . فأرهقه عذابه ، وهجس فى روعه أن يتخلص ويذهب إلى المرأة . ولكنه استنكر وجاهد وأوى أيضاً إلى بيته . فخيم عليه الليل ففاجأه الطيف وأعجزه عن النوم . فلبث مكبلاً بهواجسه ، وحاول أن يقرأ فى كتاب .

وفيما هو يقرأ والسطور تتراقص أمام عينيه ، دق الجرس . فهب من فراشه ، وفتح الباب . وإذا به يبصر المرأة ، يبصرها هى ، زينات نفسها ، تدخل عليه ممتقعة الوجه ، زائغة العينين ، ترتعش وتلقى عنها معطفها وترتمى على مقعد .

وتطلعت إليه وهو مذهول ، وقالت وأنفاسها المتعاقبة تكاد تخنقها : أتدرى ماذا فعل . . . زوجى ؟ . . . بات ليلة أمس خارج البيت ، ودخل بعد ظهر اليوم سكران . وكانت أختى ، أختى فوزية نائمة ، فتسلل إليها ، واقتحم عليها مخدعها . فصرخت الفتاة . فأمسك بها عنوة وأغراها بالمال ، فقاومته . ولما أسرعت أنا ، ألفيتها وقد تمكن منها الرعب ، تختطف أحد مقصاتها وتهم بأن تطعنه به . فلما أبصرنى كف

ا ، وجعل يضحك ويردد فى استهتار مروع : عندى غيرها . . . ثم
إلى كأنه لا يعرفنى ، وهز كتفيه وخرج . . .

واستبد الحنق بزينات وصاحت : هذا الرجل الوضيع ، هذا الرجل
ستبرى الحقير . . . إنى أبغضه . . . أبغضه . . . لم أعد أحتمله . . .
نص ما شاء من النساء ويستبيح أيضاً أختى ؟ . . . جن جنونى ،
رت من البيت ، وتركت فوزية تجمع بعض أثوابنا على أن تلحق
إلى هنا ثم نلجأ إلى منزل عمتى حيث أبقى هناك ، مصرة على عزمى ،
البة بحريتى ، حتى يمتثل شوكت ويخضع ويطلقنى !

وتهاوت على نفسها وقالت مستصرخة : ولقد جئت إليك يا حامد
ول لك أن ليس لى غيرك . . . أنت الآن كل حياتى . فهل حقاً
بى ، هل ما زلت متأهباً للاقتران بى لو طلقت من زوجى ؟ . . .
مة منك تهبنى القوة وتطمئننى وتثبت قدمى . . .

فنظر إليها حامد ونسى كل شىء . نظر إليها كمن كان قد فقد
فألفاه بغتة بين يديه . فكاد أن يغشى عليه من فرط الفرح . ولكن
الفرح نفسه أدهشه وأيقظه . ذكر الرسالة ، فاستعر غضبه ، وأمسك
أة وجعل يهزها هزاً عنيفاً ويقول : أنت ؟ . . . أأنت هى زينات ؟ . . .
كذا كنت بالأمس ؟ . . . أواثقة من أنك اليوم غيرك بالأمس ؟ . . .
يقظى يا زينات . . . راجعى نفسك . . . امتحنى عواطفك . . .

فحدقت فيه المرأة مستغربة وموجسة وقالت فى ثبات : الموت أحب
من العودة إلى شوكت !

فعاد الإيمان ورسخ فى نفس حامد ، وعاد حلمه المثالى يبرق دانياً أمام عينيه. فارتمى على المرأة ملهوفاً وأراد أن يعانقها . ولكن جرس التليفون دق فى تلك اللحظة ، فتحول مكرها ورفع السماعة وقال : من . . . فوزية ؟ . . . نعم . أختك ما تزال هنا . . . .

واردف وكلماته تحتدم : ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ . . . شوكت ؟ . . . سيارته كانت تنتظره . . . أين ؟ . . . بجوار شقة له ، شقة خاصة ، جرسونيير ؟ . . . . وهو ، هو ؟ . . . ارفعى صوتك . . . ماذا ؟ . . . أصابته نوبة ؟ . . . نوبة شلل ؟ . . . أنت قادمة ؟ . . . أسرعى . . . أسرعى . . .

فذهلت زينات واشتعلت عيناها وجعلت تردد : شقة ! . . . يتخذ شقة للبغايا وأنا لا أعلم ؟! . . . مشلول . . . مشلول . . . رذائله قد أهلكته . لن يقف بعد اليوم عقبة فى سبيلنا . إن ما وقع يعجل بطلاقى منه وخلاصنا .

فاستطار الفرح لب حامد ، وضمها إلى صدره . فتركته يقبلها لأول مرة . ثم تملصت منه ، وارتدت إلى مقعدها ، وأطرقت ولبثت تحدق إلى الأرض .

وساد بينهما صمت زافر ، هى تتصور المسكن المستقل الذى أخفاه عنها زوجها وترتجف ، وحامد ينساب إليها ، ويجلس بجوارها ، ويميل برأسه على كتفها ، ويسبح فى نعيمه المقبل المكفول ، وفجأة دق الباب . فوثبت زينات وفتحت . فدخلت فوزية ونظرت إلى الشاب ، ثم صوبت إلى أختها نظرة حاقد متفرسة تريد أن تستبطن ما عزمت المرأة عليه . ثم

قالت فى صوت غائر أجش وهي تشد بأصابعها أطراف منديلها الأبيض ذى الورود الصغيرة الحمراء : كان شوكت فى الجرسونيير مع امرأة ، فأصابته النوبة بغتة ، ففرت المرأة وتركته وحيداً . فلما انقضى وقت طويل ، صعد سائق سيارته ودق الجرس: فزحف شوكت وفتح له الباب . فأسرع السائق إلى بيتنا وقص علىّ ما حدث ... إنه فى الخارج ينتظرنا . . . .

فهتف حامد : إلى المستشفى ... يجب أن ننقل الرجل إلى المستشفى .

فقطبت زينات حاجبيها ، وتمهلت فترة ، ثم صاحت: بل إلى البيت المسألة تتعلق بكرامتى . ماذا يقول أهله عنى لو بعثت به إلى المستشفى من تلقاء نفسى ، غير مكترثة لمرضه ،ودون أن أسرع إليه بأى إسعاف أولى ، وأستقدم له فى البيت أى طبيب ؟ ... كلهم يعلم أنه كان صاحب فضل علىّ . يجب أن ينقل إلى بيته . فإذا مات ، كنت لك يا حامد . وإذا اقتضت حاله علاجاً طويلاً ، فسأطالب أنا على الفور بحقى فى الحياة ، وأنفصل عنه وأقترن بك .

فلم يسع حامد إلا أن يمتثل . فاختطفت زينات حقيبتها ومعطفها ، وأردفت :

ـ هيا بنا ...

وخرج الثلاثة واستقلوا السيارة ودخلوا الشقة يتقدمهم السائق وهو يعتذر ويردد أنه كان مجبراً على الكتمان وإلا طرده البيه وقطع عيشه .

وكان شوكت مرتمياً على مقعد وقد غاض لونه الدموى ، أصفر

الوجه ، ملتوى الخد ، مشوه التقاطيع ، منعقد اللسان ، يهتز رأسه ا
متواليًا ، وتتهدل ذراعاه على المقعد خائرتين شقيتين ، وتتوه عي
الفضاء وملؤهما الحيرة والدهش والتلمس كأن البريق الفاتك الذي
ينبعث منهما قد أطفأته النوبة وأخمدت فيه كل قوة وكل سطوة
حياة .

وتأملته زينات وتسمرت فى مكانها . ظلت تحدق فيه وهو ي
مستنداً إلى حامد ، والسائق يرفعه ويحمله ويهبط به إلى السيارة .

واتخذ الثلاثة أماكنهم ، وحامد ساهم وصابر ، وفوزية من
ومنطوية ، وزينات شامتة ولاهثة ، لا تفتأ تحدق إلى شوك
جامدة الحركة ، مكبوحة الرجفة ، متصلبة الأعضاء .

وما إن دخلوا البيت ، وأرسلوا فى استدعاء طبيب ، وأرقدوا ش
على فراشه فى مخدع النوم ، وأبصرته زينات يهز رأسه الكليل ، و
بذراعه الواهنة ، ويدمدم كالأخرس ، ويفتح فمه الملتوى وينا
باسمها ، حتى وقع شيء مذهل ، شيء عجيب . تلفتت زينات
كمجنونة ، ونظرت إلى حامد فترة ، ثم إلى أختها ، ثم إلى نفسا
وانفجر كل ما كان مكبوحًا ومحتبسًا فى صدرها . فارتمت على شوك
وطوقته بذراعيها ، وصرخت وهى تضمه ضمًّا عنيفًا ، وتقبل شعره و
وعينيه : تكلم ... حاول أن تتكلم ... لا تخف ... أنت معى
وستشفى ... ستحيا ... ولكن كيف أصبحت هكذا يا شوكت ؟
كيف ؟ ... ومع ذلك فأنت أنت ... لماذا تدور بعينيك هكذا ؟

نبحث ؟ ... عن فوزية ؟ ... أتعجبك فوزية ؟ ... أتراها ؟ ... إنها هنا ... أمامك ... تقدمى يا فوزية ... ابتسمى له فوزية ... لا تريدها ؟ ... تريدنى أنا ... تنظر إلىّ أنا ؟ ... كن عيناك أبداً أجمل وأفتن مما هما الآن ! ... أنا رهن إشارتك تركت ... سأترامى تحت قدميك ... سأخدمك ليل نهار .. ضع المرتعشة فى يدى .. ألق برأسك الكليل على صدرى .. ألا ترون هو ضعيف ... كم هو مسكين ... إنه فى حاجة إلىّ .. . أبداً ... أتخلى عنه أبداً ... هذا أقوى منى ... إنه أغلال فى عنقى . . . أنا ... لى أنا ... لى وحدى ... إلى الأبد وحدى ... إنه زوجى بيبى وطفلى ! ...

فثبتت فوزية بصرها فى حامد ، ثم سددت إلى أختها نظرة ملؤها كراهية والحقد . فتجاوب حقدها فى صدر حامد بما هو أبلغ منه يد ، وظل يشخص إلى المرأة مقشعر البدن وهو يلهث ويرتجف . يصدق أن زينات هى التى تكلمت . لم يصدق أنها هى التى رشقت كلماتها فى صدره كسهام مسمومة . أهى التى كانت بين ذراعيه منذ لحظات تصيح وتؤكد أنها ستكون له . نعم هى وليست هى . ومع ذلك فى زينات بعينها ، امرأة شبيهة بالمياه الغادرة ، شفافة الظاهر ، غشاشة الباطن ، تنكرت لكل شىء ، واندمجت بالفكر والقلب والجسد والروح هذا الرجل الفاجر الذى أهدر كرامتها وأذلها ، والذى هو الآن ضائع كسيح ومشلول .

ونكس حامد هامته وانسحق . أحس فى أعماق نفسه ، فى صميم روحه ، أن زينات لن تكون أبداً له ، وأنه قد خدع نفسه ، وغالط عقله ، وكابر مكابرة المقهورين .

أحس وأدرك أن حبه المثالى العنيف لزينات كان أملاً فخاب ، وحلماً خارقاً فتبدد ، ورحلة حافلة بالروائع أفضت إلى صحراء . فتمزق قلبه ولم يشأ أن يرى ... لم يشأ أن يرى المرأة المرهوبة ، المرأة المنيعة ، المرأة الصماء . كما لم يشأ أن يرى الرجل المشلول الذى صرعه ، فاستدار لفوره واتجه نحو الباب ، وخرج ... خرج محنى الرأس ، متساقط البدن ، محموم الخطى . فاستضاء وجه فوزية ، وأبرقت الفرحة فى عينيها ، وأتبعت الشاب النظر من النافذة ، وقلبها المحقر المعذب المحروم يتفطر حسرة عليه . ولكنها تراجعت بغتة وجحظت عيناها . أبصرت الشاب الذى كان ينطلق فى الشارع بخطى المطارد المطعون ، يتمهل فجأة ويتوقف ثم يتطوح ويتخبط كالغريق ، ثم يرفع رأسه ويحدق إلى الفضاء تحديق معتوه ، ثم يكر راجعاً ، ويدخل البيت ، وينفذ إلى المخدع ، وينتزع كرسياً ، ويجر الكرسى وهو شارد ، ويجلس بالقرب من زينات ، وتجاه فراش زوجها المشلول . . .

وانهمرت الدموع من عينى فوزية ، ونهشتها الغيرة ، وعصفت بها مشاعر الكمد والحقد والبغض . فزفرت زفير مخنوق ، وعضت على منديلها الأبيض ، وخيل إليها وهى ترتعش وتتأمل المنديل ، أن وروده الصغيرة ، وروده الحمراء قد استحالت فى عينيها الجاحظتين إلى بقع من الدم ...

الجراح الملتهبة

نشأ « مختار » فى أسرة فقيرة تسكن إحدى الحارات بالعمرانية بالجيزة . فلم يستطع أن يتم دراسته الجامعية لعجز والده « البقال » عن مواصلة الإنفاق على تعليمه . فاشتغل كاتبًا فى مكتب أحد المحامين الشرعيين .

وكان منذ نعومة أظفاره مولعًا بالغناء والموسيقى ، فظل يقتصد ويدخر من مصروفه الخاص حتى تمكن من شراء « عود » مستعمل ، أدخل السرور على قلبه وأشاع الفرح والبهجة فى أنحاء البيت .

وكان مختار لا يلبث أن يفرغ من عمله حتى يهرع إلى عوده ويأخذ فى رياضة نفسه على العزف عليه .

ولم يكن قد عرف النساء . فخوف الله كان متأصلا فى نفسه ، والاستمساك بشعائر الدين كان يعصمه — أما عواطفه ورغبات شبابه فكانت تجد فى الغناء والموسيقى منصرفًا لها .

وكان مختار يحاول أن يجيد العزف على العود ، ويجيد الغناء والتلحين أيضًا . والواقع أن ميله إلى الغناء والموسيقى كان قد انحدر إليه عن والدته التى اشتغلت أربع سنوات « كودية زار » قبل أن تقترن بوالده « الحاج بسيونى » البقال .

فالطبلة والمزمار والدف كانت اللعب التى تلهى بها مختار وهو طفل ، وكانت الحوافز الأولى التى أيقظته على حب الفن وحب الطرب .

على أن مختار لم يأخذ عن أمه هبة الفن فحسب بل هبة الجمال أيضاً . فقد كان وهو فى الثانية والعشرين ، شاباً مديد القامة فى عزة وكبر ، أبيض الوجه فى شحوب فاتن ، أسود العينين فى وداعة وسهوم ، لا يحفل بجماله قدر احتفاله بفنه . . . والحق أن صوته كان رخيماً ، وبحته مشجية ولكن زفرة الألم ولوعة الوجد وحرقة الهيام كانت تنقصه ، كما كان ينقصه اكتمال الصناعة والفن . فما زال بعوده يعالجه ويروضه حتى طوع أوتاره جهده . فاستطاع أن يحذق العزف إلى حد بعيد وإن كان لم يستطع أن يبعث فى غنائه ذلك النبض المتهدج المختلج الحى الذى يخلب ألباب السامعين .

واستفاضت شهرة مختار عند أهل الحارة . فكانوا يسعون إليه ، ويتسابقون إلى دعوته فى المناسبات السعيدة مثل كتب كتاب ، أو ليلة الحنة أو الدخلة أو الحج أو ختان الأطفال أو الاحتفال بإطلاق سراح سجين .

وكان مختار برغم اعتزازه بنفسه، يلبى فى سماحة وتواضع رغبات أهل حارته ، سعيداً بحبهم له ، فخوراً بإعجابهم به ، ذلك الإعجاب الصادق النزيه الذى كان يلهب فى خياله الأحلام الواسعة والآمال الكبار . بيد أنه كان يتهيب النظر إلى أحلامه ، ويخشى إن هو أقدم على ترك وظيفته واحتراف الغناء ، أن يخونه الحظ فيفشل فى ميدان الفن ويفقد الوظيفة الغالية . فظل يتأرجح طويلا بين الأمل والخوف . ولكن صديقه الحميم الأسطى شعبان الكواء المشهور بأنه ذواق للغناء و « سميع » ،

زين له آماله الكبار ، وشجعه عليها . فاشتعلت فى صدر مختار نار الطموح. فغافل والديه ، وشرع يتصل بأهل الفن حتى تمكن فى النهاية من تحقيق حلمه وأصبح مطرباً فى كازينو « الست فردوس » ، يغنى ثلاث ليال فى الأسبوع لقاء أجر يفوق كل ما كان يتقاضاه وهو فى وظيفته .

وكانت فرحة غامرة شاركه فيها أهل الحارة . أما أمه الست نفوسه ، فمضت تزغرد ، وتنثر الملح ، وتبخر ابنها لتحميه من العين . وأما الحاج بسيونى الذى كان ما يفتأ يتبرم بأن امرأته كانت بالأمس كودية زار ، فقد أغضبه أن يصبح ابنه مطرباً ، واعتبر ما حدث انتقاصاً صارخاً من قدر أسرته ، وأبى إلا أن يرتد مختار إلى مكتب المحامى . ولكن الست نفوسة تصدت له وتغلبت عليه . فامتثل آخر الأمر وأطاع . فسر مختار واغتبط وارتمى فى حياته الجديدة بجمع قواه . . . وبدأ يكافح كفاحاً مريراً ليشق طريقه ويلفت أنظار الجمهور إليه . فاستطاع بفضل ثباته وجهاده أن يحرز نجاحاً ظاهراً ملحوظاً . بيد أن ألحانه كانت ما تزال فجة ، وعزفه ما يزال فاتراً، وغناءه برغم حلاوته ورخامته ما يزال يفتقر إلى ذلك النبض العاطفى المختلج الذى كان ينشده .

والواقع أن جمال مختار كان يشفع له عند الجمهور وبخاصة عند النساء . فالبعض من سيدات الطبقة المتوسطة أعجبن به ، وبالغن

عند أزواجهن فى إطراء مواهبه ، مما حمل أولئك الأزواج على دعوته إلى بيوتهم لإحياء حفلات خاصة فى شتى المناسبات .

وهكذا ابتسم الحظ لمختار . ومع ذلك فهو لم يكن سعيداً . كان يستشعر نقص فنه ، وضعف ألحانه ، وفتور غنائه . فبات يعلم علم اليقين أن الفضل فى نجاحه يرجع إلى جماله ، فكان يتألم بل ويتعذب .

وكانت « فتحية » وهى فتاة فى السابعة عشرة ومن أهل حارته ، تحبه أشد الحب ، وترقبه من شباك حجرتها . فإذا ما أبصرته فى غرفته يعالج العزف على عوده ، أسرعت إلى بيته ، وتفانت فى خدمة أمه ، ومضت تغسل لها المواعين ، أو تكنس الأرض وتمسحها ، أو تجمع القمصان والجلاليب المنشورة ، وعينها ما تفتأ تحوم حول مختار .

وكانت فتحية سمراء الوجه ، عسلية العينين ، ذات نظرة بريئة مرحة ، وضحكة صريحة رنانة ، وجسد صغير لا يتحرك بل يثب ، ولا يمشى بل يرقص . . وكان مختار يلمس إخلاصها وحبها له . ولكنه كان يأبى أن يرتبط بامرأة وأطفال قبل أن يملك ناصية فنه ويطمئن إلى مستقبله . فتحفظ مع فتحية جهده . فدب اليأس فى قلب الفتاة ، وزادها يأساً ورعباً أن والدها الفكهانى « المعلم جمعة » أصر على أن يزوجها بصديقه الميسور الخضرى الكهل الدميم « المعلم أبو سريع » .

وكفت الفتاة عن زيارة بيت مختار فأحزن الشاب عجزه عن إسعادها ،

وشعوره بأنه لا يحبها بل يشفق عليها . فلبث يفكر فيها أياماً ويرثى لحالها ثم استبدت به أحلامه ، فاستغرق فى الكد والمران لإتقان فنه ، محاولا فى مرارة وإعنات آن يودع فى غنائه تلك النبرة العاطفية المختلجة ولكن على غير جدوى .

وفى ذات صباح ، وبينا هو فى المسرح منهمك فى تجربة أغنية جديدة ، استدعى فجأة إلى التليفون . وكان المتحدث إليه وجيهاً يدعى « عصمت بك » ، ما إن اتصل بمختار حتى عرفه إلى نفسه ، وأثنى عليه ، ثم طلب إليه فى رجاء وإلحاح أن يتكرم بإحياء الحفلة التى يقيمها الوجيه بعد أسبوع فى منزله الكائن فى حى الزمالك بمناسبة عيد ميلاد السيدة زوجته . . . واضطرب مختار لحظة ، ثم أسرع بتلبية دعوة الوجيه شاكراً له ثقته وثناءه .

وكانت هذه أول مرة يدعى فيها مختار لإحياء حفلة فى حى الزمالك . فتنازعت نفسه عوامل الفرح والخوف،وأوشك أن يتصل بالوجيه ويعتذر ولكن مطامعه استيقظت فيه،وأغرته بانتهاز هذه الفرصة الثمينة النادرة .

ولم يشأ أن يصارح بالأمر إنساناً ، وأسرع وأعد فرقة موسيقية ممتازة ، وطفق يدربها الأسبوع بطوله . ثم عنى بمظهره كى يكون خليقاً بالوسط الرفيع الذى دعى إليه .

وجاءت الليلة المرهوبة ودخل الأستاذ مختار فى صحبة فرقته منزل الوجيه عصمت بك . وما إن أعلن الخادم نبأ وصوله حتى خف الوجيه وحرمه لاستقباله . فبادر مختار بتهنئة ربة البيت بعيد ميلادها . فشكرته

« بهية هانم » مبتسمة ومرحبة . فأجال البصر حوله ، فراعته السيدات المتحليات بالجواهر ، المختالات فى فساتين « السواريه » ، كما راعته اللوحات البديعة ، والتحف الغريبة ، والمرايا اللامعة ، والطنافس اللينة العميقة التى كانت تغيب فيها قدمه كأنها تسبح فى لجة من المخمل الناعم .

وصفق المدعوون ، وشرعت الفرقة فى عزف مقطوعة موسيقية ، ثم قسّم مختار على عوده ليالى مشجية . فتصاعدت الآهات والصرخات . فتشجع الشاب واندفع يغنى موالا . بيد أنه أحس أن صوته لا يخفق بذلك النبض المختلج الذى كان يتهالك عليه . فحنق وابتأس . ولكن المدعوين ولا سيما السيدات قابلوه بتصفيق حاد . فمضى يغنى أغنية عاطفية شائقة النظم ، وينثر كلماتها فى رقة ورخاوة ودلال . فتأثرت السيدات بسحر جماله أكثر مما تأثرن برخامة صوته . فصحن هاتفات واقتدى بهن جميع المدعوين .

وكانت ربة الدار بهية هانم تتصدر ركناً من الصالون ، وحولها بعض صديقاتها ورهط من الشباب جلس بينهم رجل من ذوى الأملاك ينادونه باسم حلمى ويخلعون عليه رتبة الباشوية .

وكان « حلمى باشا » كهلا فى نحو الستين ، وخط الشيب شعره ، مكتنز الوجه ، داكن اللون ، حاد البصر ، متأنقاً ولكن فى ذوق سقيم ، تصرخ ربطة عنقه العريضة الحمراء على ثوبه البنى الفاتح ، وتلمع فى أصابعه فصوص خواتم ضخمة ، وتنساب على بطنه المتكرش سلسلة

ساعته الذهبية تنحدر منها دلاية مستديرة لا تنفك تمايل وتتطوح على وقع حركاته ... وكان لا يفتأ يطالب خمراً و « مزة » من الخادم . فيشرب الخمر وهو يمصها من الكأس مصاً ، ويلتقط المزة من الأطباق كأنه يختطفها ، ويضحك الوقت بعد الآخر فى قهقهة مدوية ، ويرشق من حوله بنكت معنوية نابية ، ثم يحس فجأة أنه قد جاوز حده ، فيسرع ويهتف للمطرب هتافاً مزعجاً متواصلا .

وكانت بهية هانم ترقبه خلسة وهى ممتعضة . فلما أتم مختار أغنيته واتجه الجميع نحوه مهنئين ، دنت منه بهية هانم واقتادته ورفاقه إلى البوفيه وهى تلحظه بنظر ثاقب وتقول له وكأنها تهمس أنها تعرفه من زمن بعيد ، وأنها كثيراً ما شاهدته على مسرح الكازينو وأعجبت بصوته الشجى الرخيم . فأخذ مختار يتأملها فى وجوم ، ويرمق ذراعها البضة ، ويدها الرخصة ، وأعضاءها المتماوجة ، وعينيها الخضراوين المبتسمتين الوسنانتين ، وأناقتها الخلابة الرائعة .

ولم يكن مختار قد تصور أبداً أن فى العالم مثل هذا اللون من النساء . فنسى كل شيء . نسى أهله وأحبابه ، ومضى يعب فى وجه بهية هانم ، لا يعكر صفوه ويخنقه ويثيره غير صوت حلمى باشا الخشن الجهير ، وقهقهته السوقية المدوية .

وأحست المرأة أن الشاب متبرم ومأخوذ . فتحولت به وأجلسته بالقرب من زوجها ، ثم راحت تنعم النظر فيه كأنها ترشف سحر جماله وعذوبة انكماشه وخجله .

أيقنت أن هذا الفتى الذى يعيش فى وسط حافل بالنساء لم يعرف المرأة بعد ، وأنه بسيط النفس ، خالى القلب . فسألته فى عدم اكتراث ما إذا كان قد تزوج . فأجابها بالنفى . فعضت على شفتيها ، وتألقت عيناها الخضراوان تألقاً قريراً حالماً .

ولما انتهت الوصلة الأخيرة، انسلت بهية هانم إلى مخدعها ثم عادت واتجهت نحو مختار . وبحركة خفيفة لطيفة دست فى يده شيكاً وهى تعتذر إليه . فأراد أن يتكلم ويشكرها، ولكنه ألفاها صامتة تحدق فيه . فعقلت نظرتها لسانه ، فانحنى أمامها انحناء بالغاً وهو يصافحها ، وانصرف فى صحبة زملائه ، والمدعوون يثنون عليه، وحلمى باشا يصافحه فى حرارة مهنئاً إياه بصوته الخشن الجهير .

* * *

وخرج « الأستاذ » مختار ذاهلا مبهوراً ، تملأ نفسه عوامل الفخار والعزة ، ويسبح خياله فى صورة تلك السيدة العظيمة الكريمة التى لم ير لها بين النساء شبيهاً .

وفيما هو متجه نحو حارته ، أبصر الأسطى شعبان الكواء مقبلا عليه فى لهفة . ففتح ذراعيه وعانق صديقه الأثير . فقال له شعبان إنه سيحتفل بعد ثلاثة أيام بختان ولده الصغير « مدبولى » . فلم يتردد مختار ووعده بالغناء فى ليلة الحفلة ولا سيما أنه معفى فى تلك الليلة من الغناء فى الكازينو . فانصرف شعبان مبتهجاً ، ودخل مختار بيته وهو ما يزال يفكر فى المرأة التى سلبت نهاه .

وأثلج صدره أنه قد استطاع لأول مرة أن يظفر له ولفرقته بشيك قدره خمسون جنيهـًا . فأسرع واشترى لأمه طرحة وملاية من حرير ، وقفطانـًا شاهيـًا لأبيه الحاج بسيونى ، ثم بادر وفصل بدلة دفع قسطها الأول ، كما اشترى بالقسط أيضـًا فونوغرافـًا صغيراً وبعض أسطوانات شرقية لمشاهير الموسيقيين .

واستمع لنصيحة أمه فأخفى النبأ السار عن رفاقه خشية أن تصيبه العين . ولكن البدلة الجديدة والقفطان والفونوغراف لفتت أنظار أهل الحارة ، فطفقوا يتقولون ويتهامسون . فارتعدت فرائص الست نفوسة ، وأبت إلا أن تكتب لابنها حجابـًا ، وتلبسه إياه ، وتبخر بيتها كل يوم فور سماعها أذان الظهر .

* * *

وأمضى مختار يومين مشتت الفكر ضائعـًا ، يغنى فى الكازينو وكأن ليس هو الذى يغنى ، بل كأن صوته قد ازداد رخاوة وفتوراً ، وكأن ذلك الاختلاج الحى الذى ينشده فى غنائه لن يتحقق له أبداً .

وظل يتخبط فى كمد وحيرة ، ويتطلع فى يأس إلى حدث خارق يرد إليه ولو بعض الثقة فى قدرته وقواه ، حتى نودى عليه فى ظهر اليوم الثالث فى التليفون وهو فى المسرح . فما إن رفع السماعة وأصغى حتى تهدى إليه صوتها ، صوت بهية هانم تدعوه لتناول الشاى مساء فى منزلها .

واحتواه فرح لا يوصف ، وأسرع إلى المرآة فى الميعاد . فاستقبلته

السيدة فى ثوب أسود مزين بوردة كبيرة بيضاء ، واعتذرت له عن غياب زوجها ، وشرعت تحدثه عن فنه وحياته وهى تبتسم وتقدم له قدح الشاى وطبق الحلوى . فأفضى إليها بكل شىء . فشجعته ، وقالت إنها لا بد أن تعاونه وتأخذ بناصره حتى يبلغ ما هو خليق به من شهرة ومجد . ثم رفعت رأسها بغتة ، وصعدت نفساً مستطيلا ، وسألت الشاب عما إذا كانت رخامة صوته ترجع إلى أنه اتصل بامرأة وعرف الحب . فعلت وجه مختار حمرة الخجل . فأدنت هى مقعدها منه ، ومالت إليه ، وصبت له فنجاناً آخر . فتهدلت خصلات شعرها ، ولاحت أمامه عيناها الخضراوان ، وذهب بلبه بياض صدرها الناصع حيث منبت نهديها ينبثق خطاً دقيقاً مصوباً كالسهم . فارتجف مختار وتراجع . فتراجعت هى أيضاً شبه تائهة ، وتنهدت وقالت إنها امرأة شقية ، وإن زوجها يهتم بلعب البوكر وسباق الخيل ويهملها وإنها فى حاجة إلى صديق ، فجاشت نفس مختار وهتف أنه هو الصديق ، وأقبل عليها . فتراجعت مرة أخرى كأنما هى تقاوم شعوراً ملك عليها قلبها وحواسها . فأكبر منها مختار تمنعها ، وأيقن أنها امرأة نبيلة وعفيفة تحبه وتغالب حبها . فاتقد فى صدره عشقه الطارئ الجامح لها ، ومد ذراعه بالرغم منه يحاول أن يعانقها . فارتدت عنه فى رفق مرة ثالثة ، ثم ترنحت كأنها لم تستطع مجاهدة عاطفة أقوى منها ، وارتمت عليه خائرة وتركته يضمها ويقبلها . وما إن قبلها حتى نهضت جزعة ومستنكرة ، والتمست منه أن ينصرف وتقدمته . فتبعها متوسلا . ولكنها صافحته وهى تضغط على يده ، وهمست فى أذنه أنها

ستتصل به ، ثم ابتسمت له ابتسامة كسيرة ، وأوصدت خلفه الباب .

* * *

وانطلق الأستاذ مختار فى شوارع حى الزمالك نشوان ذاهلا ، لا يستطيع أن يصدق أن مثل تلك المرأة قد أحبته وأنه قد قبلها . فازداد يقيناً أن حبها له قد غلبها على أمرها ، وأنها الحب والصدق والكمال مجسماً . فدخل بيته بعد أن فتحه بمفتاحه الخاص ، وراح يصفر ويدندن وينادى أمه الست نفوسة كى يضمها هى أيضاً إلى صدره ويقبلها . ولكنها كانت فى زيارة لصديقة لها . فجعل مختار ينتقل فى أرجاء البيت معللا نفسه بلقاء حبيبته ، واثقاً من أنها ستتصل به فى يوم قريب .

وفجأة دق الباب ، فأسرع مختار وفتح . بيد أنه جمد فى مكانه إذ أبصر أمامه فتحية .

ودخلت الفتاة التى كانت بالأمس تمرح وتضحك ، وتمشى وكأنها ترقص ، دخلت وئيدة الخطى ، ضامرة الوجه ، صفراء اللون ، محنية الظهر كأنما هى ترزخ تحت حمل ، ووقفت لحظة تجاه مختار صامتة . ثم قالت إنهم سيقرءون فاتحتها غداً على الخضرى الكهل الدميم المعلم أبو سريع ، وأطرقت وانتظرت ... انتظرت إشارة رقيقة ، كلمة رحيمة ، عبارة قد تكون شافية ومنقذة ... ولكن مختار ، مختار الذى أسعده القدر بحب امرأة عظيمة ، زهاه كبره ، وقسا قلبه ، وزايلته شفقته القديمة على الفتاة . فنظر إليها فى ترفع بل فى ازدراء .

نظر إليها نظرة المنتصر إلى المهزوم، والممتّع إلى المحروم ، ولم يتكلم ... لم ينطق ... فرفعت إليه الفتاة عينين زائغتين يائستين مخبولتين ، واستدارت مسرعة ، وخرجت وهي تجهش بالبكاء . فهز هو كتفيه وأشعل سيجارة. ثم ضاق ذرعاً بوحدته التي عكرت صفاءها فتحية . فأراد أن يتخلص من الفتاة ، أن يطرد خيالها ، أن يفكر فقط فى بهية هانم ويعيش معها حتى يلقاها . فترك البيت وهبط إلى الشارع وظل يمشى ...

ومشى طليق النفس ، مصعر الخد ، منتفخ الصدر ، ينظر إلى الناس مستعلياً عليهم ، مستهزئاً بهم ، موقناً بأن لا أحد منهم قد خالس النعيم الذى كان من نصيبه والذى سيرتع هو غداً فيه .

وقادته قدماه إلى طريق الهرم . وكان الوقت ليلا ، والنسيم عليلا ، والسيارات تغدو وتروح ساكبة من مصابيحها الكبيرة رشاشاً أزرق من الأضواء يلتمع الطريق فترة تحت بريقها الساطع ثم تكتنفه الوحشة والجهامة والظلام .

والتمع الطريق فجأة كأنما النهار قد لاح . فتوقف مختار وانتفض ولم يعد يدرى أين هو . ماج به كل شيء . تلاحقت أنفاسه . توترت أعصابه . فغر فاه كأبله . خيل إليه أنه لا بد أن يكون أعمى . ولكنه لم يكن أبداً حديد البصر والبصيرة كما كان فى تلك اللحظة ... رآها ... رآها رأى العين ... هى ... هى نفسها ... بهية هانم ... المرأة العزيزة الشريفة النبيلة التى غلبها حبها له على أمرها والتى كانت تئن وتزفر بين ذراعيه منذ ساعات ، رآها منطرحة فى جوف سيارة ، محلولة

الشعر ، مكشوفة الصدر والذراعين ، ورأسها مسند فى نشوة إلى كتف الرجل الوضيع ، الرجل الحقير ، الرجل الدنىء ، حلمى باشا الذى كان لا يفتأ يلثم وجهها وشعرها وهو يبتسم ابتسامة الظافر الساكن المطمئن . . .

واختنق مختار . تفطر قلبه وتخاذلت ركبتاه وكاد أن يسقط . بيد أنه أبصر السيارة تقف بجوار أحد المقاهى المنتشرة فى الطريق . فتماسك وأسرع واحتجب خلف باب إحدى العمارات . فأخذت عينه المرأة والرجل يدخلان المقهى . فغلى الدم فى عروقه ، ونهشته الغيرة، وهم بأن يبرز من مكمنه ويندفع لينتقم ويتشفى . ولكنه خشى أن يفقد صوابه فيشهر بالمرأة ويعتدى على الرجل . فتهاوى على مقعد بواب العمارة وانهارت قواه .

أيقن أن حبه الأول المؤمن الواثق البرىء قد تحطم ، وأن بهية هانم قد ضاعت منه إلى الأبد ، وأن من المستحيل عليه أن يسعى فى الغد إليها وإلا كان كمن يسعى إلى بؤرة يعيث فيها ديدان . ولكن كيف يمكنه بعد اليوم أن يعيش... بل كيف يمكنه الآن أن يتنفس ويغنى ؟... الليلة ليلة الاحتفال بختان ابن صديقه . . . ولقد وعد ولا بد أن يغنى ... المدعوون فى انتظاره ، والأسطى شعبان لن يغفر له أبداً أن يخلف الوعد ! . . .

وتحامل على نفسه مكرهـاً واستقل سيارة .

وكانت الحارة مضاءة بالكلوبات ، غاصة بأهل الحى الجالسين على الدكك ، يضحكون ويصخبون ويتراشقون بالنكات وهم يستمعون إلى

شاب وقف على منصة وجعل يعزف على الأكورديون ...

وما إن ظهر مختار حتى تعالت الأكف بالتصفيق والحناجر بالهتاف فاختفى عازف الأكورديون ، وأرسل مختار فى طلب عوده ، ثم اعتلى المنصة التى وقف بالقرب منها الأسطى شعبان ، يبتسم للمدعوين فى اعتزاز ، ويحيى « المعلمين » منهم ، وهو يحمل على منكبه مدبولى ابنه الغالى ، ويلوح بذراعه ويصيح : « شمع هس ... اللى يحب النبى يسمع ... »

وبرح بمختار العذاب ، ولم يحتمل —أراد أن يفر من نفسه ، أن يطلق قلبه من عقاله ، أن ينفث الدم الجاثم فى صدره ، أن يشرك الناس فى لوعته وأساه . فانطلق يغنى دوراً لسيد درويش ويقول :

« كنت افتكر حبك يزودنى كمال
خيبت ظنى
والهوى ما جاش سوا
خيبت ظنى ! ... »

وكانت اللوعة فى صوته صادقة ، والحسرة حارقة ، والأنين ممزقاً ، والنبض المختلج الذى طالما تلهف عليه ينبعث من نغماته حياً خالباً . فالتهبت مشاعر الجمهور ، واستلبه التأثر والطرب ، فطفق يصفق ، ويهتف هتافاً لم يقابل به مختار أبداً . وكانت أمه الست نفوسة مستوية على شرفتها تكسو فمها بطرحتها وتزغرد . وكانت فتحية البائسة تطل من شباكها ودمعها يسيل . فأحس مختار حيال روعة انجذاب الجمهور

وتأثره ، أن ما كان فيه خامداً قد اشتعل ، وأنه كان صانعـًا فأصبح فنانـًا ، وأن الجمرة التى تتقد فى صدره هى الينبوع الذى سيتفجر منه فى الغد مجده . ولكنه فى اللحظة نفسها ، وبرغم ما أحرز من تفوق ، أحس أن فنه لم يزل ناقصـًا ، وأن إعجاب الجمهور لم ينقع غلته ، ثم أحس شيئـًا عجيبـًا ، شيئـًا قاهراً . أحس أنه الآن ، الآن ، يريد أن يخلق ، أن يُبدع ، أن يطلق أنغامـًا عظيمة أخرى ما تزال محتبسة ومحتدمة فى صميم كيانه . فاعتذر إلى صديقه بتعب طارئ ألم به ، ولم يكترث لإلحاح الجمهور وهتافه ، وحمل عوده وانسل إلى بيته وأوى إلى حجرته . وفى هدأة الحجرة تفتحت مغاليق ذهنه ، وانصب عليه بغتة سيل من نور . . . أدرك مختار أن ما صوره الساعة فى غنائه كان اللوعة والحسرة والأنين فقط . ولكن أين هو وجدانه الخفى ، أين هى سائر المشاعر التى اضطرم بها قلبه الجريح ، أين فجر حبه الزاهر ، وليل أحلامه الضائعة ، وقسوته على فتحية المسكينة ، وحقده على المرأة الخائنة ، وغيرته الوحشية من غريمه ، ونية الاعتداء والانتقام التى تمشت فى عقله وعروقه ودمه . . . لم يكن فى صوته ولا فى الدور الذى غناه أى شىء من هذا ... كل هذا أراد أن يعبر عنه بالموسيقى ، أن يبعثه ويصوره ، أن يبدعه فى لحن فذ جديد شامل . فعاجل العود جهده ولكن العود خانه هو أيضـًا . كانت نغماته هى نفس نغمات كل أداة موسيقية شرقية ، نغمات شاكية نائحة رتيبة محدودة ، لا يمكن أن تؤدى العوامل المتضاربة التى تعتلج فى حنايا النفس وتستعر فى أعماق الروح

فتملك مختار الحنق . فأمسك بالعود ورفعه وهم بأن يضرب به الأرض ليحطمه . ولكنه ألقاه جانبًا ، وراح يفكر فى اللحن الشامل الفذ الذى تصوره خياله . راح يفكر منجذب العقل والقلب والحواس ، وظل يفكر لاهثًا حائراً متخبطًا ، وهو يتنقل فى الحجرة ، ويدور حول نفسه كمجنون . . .

الشيخة منورة

كان الجميع يشفقون عليها ، ويرددون أنها عاطلة من كل حسن يميزها ، وأنها قد جاوزت الثلاثين وأمست عانسًا ، وأن هذا هو الحظ الذى كتب لها .

والواقع أن « مندورة » كانت فتاة شاحبة اللون ، خامدة السمات ، ذات وجه مغضن مربد ، وعينين ضيقتين ، وخدين غائرين ، وفم عريض غليظ ناتئ الأسنان .

وكانت كغيرها من الفتيات قد حلمت بالحب والزواج طويلاً ، ولكن تعاقب الأيام عليها ، ونفور الشبان منها ، والحظ السعيد الذى أصابته أخواتها الثلاث ، كل هذه العوامل أيأستها وألقت فى روعها أنها لم تخلق للحب والأمومة كبقية النساء .

والعجيب فى أمرها أن حظها العاثر لم يُحْفظها أبداً على غيرها. فالحسرة العميقة المريرة لم تتطرق إليها ، والغيرة الخبيثة الشريرة لم تعرف سبيلاً إلى قلبها . فلكى تجد منصرفًا لعواطفها ، أنكرت ذاتها ، وودعت شبابها ، وأقبلت بكل قواها على مختلف ضروب العبادة والتقوى. اتشحت بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . تباعدت عن الرجال والشبان جهدها ، وشرعت تصوم وتصلى ، متجهة بعقلها وقلبها نحو أمل واحد هو أن تحج بيت الله وتزور النبى الحبيب وتسعد .

وكانت تقرأ الأدعية والأوراد للتكفير عن الذنوب والاستكثار من

الحسنات ، وتتحجب بالمصحف الشريف ، وتولع باستخدام البخور فى الأيام العشرة من المحرم . وإذا مات جار أو قريب ، قرأت هى القرآن على النساء صباحًا . وإذا كان الأول من رجب أسرعت إلى المدافن ووزعت الفطير والشريك والفاكهة على روح الفقيد . وإذا فاضت بها لواعج الشوق إلى الملأ الأعلى، أوصدت عليها باب حجرتها، وجعلت من الحجرة خلوة كخلوة الصوفى تكثر فيها من التأمل وذكر الله .

وأطلقت عليها الجارات لقب « الشيخة مندورة » . فكن يرحبن بمقدمها ، ويتبركن بها ، ويفزعن فى الملمات إليها ، ولا يقطعن بأمر خطير إلا بعد استشارتها والتأكد من رضاها .

وأضفى الإيمان على مندورة حلة غريبة من وقار ، تراءت فيها بغتة بعض أضواء خاطفة من جمال

أثر إشراق روحها فى ظلمة جسمها ، ولطف صفاء نفسها من دمامة وجهها ، وسكبت عليها العفة الشامخة المقرونة بالتواضع ، ظلاً من الملاحة عذبًا فاتراً .

وكانت سعيدة . ومع ذلك فقد كان فى قلبها شىء يتألم بالرغم منها، وفى خيالها شىء ما يزال يحلم ويدهشها ... كانت فى غمرة الصوم والصلاة ، ما تفتأ تهفو إلى الزواج ، وتصبو إلى الأمومة ، وتنزع إلى الحياة . على أنها لم تصارح نفسها بهذا الإحساس أبداً ، بل لقد حاولت على النقيض أن تنساه ، خشية أن يغرر أيضًا بها ؛ ويضاعف الألم الخفى الذى تحمله فى صدرها .

وظلت مندورة هكذا تتأرجح بين قسوة اليأس ومجاهدة الأمل ، حتى ابتسم لها الحظ ووقع عليها بصر شوكت أفندى ...

وكان شوكت زميلاً لوالدها فى الديوان ، وكان يزوره فى بيته ويسمع عن مندورة دون أن يراها . ففى ذات مساء ، وبينما هى تصلى ، دفع شقيقها الطفل باب حجرتها ، فلمحها شوكت اتفاقاً ، وأعجب بها . راعه منها جلال مظهرها ، وقدس هيبتها ، وسحر صمتها ، وجو الراحة والسكينة المنبعث منها . فأخذ بها ، وأعرب عن رغبته فى أن يراها ويتحدث إليها توطئة للزواج بها .

وكان شوكت أفندى كهلا عزباً فى نحو الخمسين من عمره ، بدين الجسم ، جاحظ العينين ، متكور البطن ، يتهدل لحم ذقنه على صدره ، وتهتز طياته الثقيلة كلما تحدث أو تلفت أو استرسل فى الضحك الطويل كالأطفال .

والحق أنه كان على ضخامة بدنه ، طفلا ، سريع الحركة ، خفيف الروح ، برىء النفس ، ساذجاً طيباً رقيقاً . فلما أعلن عزمه على الزواج بمندورة ، اضطرب والدها ، وشكا إليه غرابة أطوارها ، وحذره من نفورها وتمنعها . فأصر شوكت على أن يراها ويحادثها . فبرزت إليه مندورة ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، محدقة بعينين ذاهلتين إلى هذا الرجل الوحيد الذى سمعته يطلبها ...

وجلست إليه مشدوهة العقل ، مسلوبة اللب ، لا تصدق سمعها ،

ولا بصرها ، ولا تلك الفرحة الطارئة العميقة التى غافلتها واستقرت بغتة فى صميم أحشائها .

وخيل إليها أنها ما تزال تحلم . أحست كأنها توشك أن تموت . ثم حانت منها التفاتة ، فأبصرت شوكت يضحك ، وطيات ذقنه تهتز ، وكرشه الكبير يتوثب ، وعيناه الجاحظتان تدوران وتلمعان كعينى طفل . فتفرست فيه ، فضحك أيضًا لها . فاطمأنت إليه ، وشعرت براحة غريبة تتدفق منه وتسرى فى كيانها .

ولاطفها كما يلاطف المحب حبيبته . داعبها فى رقة ، وغازلها فى أدب . فنظرت إلى نفسها ، وتحسست وجهها ، وهجس فى روعها أنها لم تعد مندورة ، وإن شيئًا خارقًا عجيبًا قد أصابها ...

واستمهلها شوكت شهراً كى يعد المهر ويشترى الشبكة ويتهيأ للخطبة والزواج . ثم أقبل على الأسرة ، وانخرط فى سلكها ، وطفق يزور البيت كل مساء .

وكان يفد إليهم مثقلا بالهدايا . فتارة يحمل الموز أو التين أو الرمان ، وتارة بطيخة بلدية كبيرة ، أو كمية محترمة من الكنافة ، أو قرطاسًا عظيمًا يبرق فيه البلح الأحمر الزغلول النابض بالحب والحياة .

وكانت مندورة تستقبل شوكت فى لهفة ، وتجلس إليه فى فرح ، وتحادثه فى رقة ناعمة خفرة ، لا يلبث أن ينعشها الزهو وتلهبها الخيلاء .

وشيئًا فشيئًا ، وعلى مر الأيام ، تألق محيا مندورة . التمعت عيناها ، وامتلأ خداها ، وتقلصت غضونها ، وانسجمت تقاطيع وجهها الدميمة

انسجاماً أثار العجب والدهشة فى جميع من حولها .

وطرحت مسوحها السوداء ، وارتدت أثواباً جميلة ، أثواباً حديثة ، أثواباً تكاد بألوانها الزاهية أن تصرخ بالفوز وتهتف بالهناء ـــ ومع ذلك فقد كانت غائبة عن وعيها .

كانت تستيقظ على دعوة الحياة وهى تائهة . كانت ما تزال حائرة وذاهلة وغير مصدقة ، حتى وقع حادث بسيط أشعرها بعظم الانقلاب الذى طرأ عليها .

دخل شوكت ذات مساء ، ودنا منها ، ثم قدم إليها فى ابتسامة صبيانية فاتنة بضعة أعواد من التمر حنة ... وفى تلك اللحظة نفسها ، وبينما هى تتأمل الأعواد وتتنشق عبيرها ، تصاعد فى الشارع صوت بائعها يدوى فى الفضاء : « التمر حنة روايح الجنة ... » فترنحت مندورة ، ونظرت إلى شوكت ، وتلفتت إلى المرآة بالرغم منها ... وفجأة ، ولأول مرة فى حياتها ، لأول مرة منذ فوزها ، أبصرت نفسها جميلة وساحرة . فخفق قلبها ، وتعاقبت أنفاسها ، واستندت إلى شوكت كى لا تقع مغشياً عليها .

ولما ردد البائع : « التمر حنة روايح الجنة .. » ، تفتح ذهنها ، فعرفت حقيقتها ، ولمست يقظتها ، وشعرت شعوراً دافقاً غامراً أن شوكت قد بعثها ، وحملها بالفعل إلى رحاب الجنة ...

وتنشقت عبير الأعواد ملء رئتيها . ولكنها لفرط ما طوحت بها النشوة ، رفعت رأسها فى كبر ، وصعرت خدها فى اعتزاز ، وآمنت

إيماناً راسخاً بأنها قد تغيرت وتطورت واستحالت إلى امرأة أخرى .

ومنذ ذلك اليوم تبدلت أخلاقها ...

نظرت إلى شوكت من عليائها . رمقته بنظرة فاحصة ، وتقطب جبينها . غاظها منه وجهه المتغضن ، وكرشه المتكور ، ولحمه المتهدل ، وضحكه الصاخب الصبياني السخيف .

استنكرت مظهره ، واستثقلت حديثه ، واستغربت منه كيف يحمل جسم عملاق ورأس طفل .

وقارنت بينه وبينها فدهشت ... عز عليها أن تكون زوجاً لمثله . فتبرمت به ، وتجهمت له ، وتدللت عليه ، وغافلته وبدأت تنظر إلى الشباب ...

وكان لزوج أختها الصغرى شقيق فى مقتبل العمر يدعى «ممدوح»، لم يجاوز الخامسة والعشرين ، مشرق الطلعة ، جم الفكاهة ، حلو الحديث فتقربت إليه مندورة ، وراحت تغازله ...

وكان النصر قد أحياها . ألهب أنوثتها ، وأطلق غرائزها، وحباها بضرب من جمال تجتمع فيه الرصانة بالخفة ، والتردد بالجرأة، والوقار بالطيش . فهام بها ممدوح ورأى فيها المرأة الناضجة التى ينزع إليها خيال كل شاب .

ولم تكد تشعر أن الفتى قد أحبها ، حتى تاه عقلها ، وختم للفوز الجديد على بصرها ، فانصرفت بجمع قلبها إلى ممدوح ، وأعرضت بجُمع كبرها واحتقارها عن شوكت .

وباتت تخاف العين وتخشى الحسد ، تخشى أن يحسدها إنسان على حب ممدوح . فكانت عندما تُبخر حجرتها تضيف إلى البخور بعض « الشب » فيحترق الشب متخذاً شكل مخلوق غريب . فتهتف مندورة أن هذا هو الحسود بعينه ، وأنه قد تلوى الساعة فى النار وارتد كيده إلى نحره .

ولما كان يشتد بها التلهف على الحبيب الشاب ، كانت تجىء بحجر من الزلط الرمادى الهش ، تسميه جاراتها حجر الحب ، وتضع الحجر فى الماء فتتحلل منه مادة بيضاء . فتسرع هى ، وتغافل أهلها ، وترش من هذا الماء على عتبة البيت . فإذا ما أقبل ممدوح وخطا على الماء ، أيقنت أنه سيظل مولعًا بها ، وأنه لا بد أن يتقدم وشيكًا ويطلبها .

وهكذا تبدل كل شىء فيها . فتمزق فؤاد الكهل شوكت ذلاً وحسرة . فانطوى على نفسه ، وأرجأ مكرها موعد الخطبة ، وطفق يتسلل من البيت ليفسح لغريمه الطريق ...

وبهت أهل البيت وروعوا . ولكن مندورة لم تحفل ، وارتمت شبه مخبولة فى غمرة حبها الجديد .

وكانت نشوة طاغية لم تحلم أبداً بها . كان نصراً مزدوجًا لم يجر قط فى وهمها . كان تفوقًا رائعًا لم تظفر به عانس قبلها . فاضطرب عقلها ، وتشوش فكرها ، وفقدت بغتة ملكة الحكم على نفسها .

أسرفت فى التسلط كما أسرفت فى الحب . ما زجت حبها قسوة غلابة عاتية ، ورغبة فى الاستئثار عنيدة متهافتة .

أرادت أن تُخضع ممدوح ، أن تأسره ، أن تحوزه ، أن تغيبه فى ذاتها بحيث لا تكون إلا له ولا يكون إلا لها . فأمعنت فى الغيرة عليه ، وأغرقت فى الاستبداد به ، وتورطت فى تذوق حلاوة امتلاكه وتعذيبه وهى بعد لم تصبح خطيبة له ...

وأفاق الفتى من غشيته ورآها ... لم ير فيها الحب بل الكبر ، ولا الخير بل الشر ، ولا الجمال بل القبح ؛ فانخلع قلبه ، ولم يجد بدًّا من الفرار . فانطوى هو الآخر على نفسه، وطفق يتسلل من البيت ليفسح لغريمه الطريق ...

وعندئذ تزعزعت أعصاب مندورة وأوشكت أن تفقد البقية الباقية من صوابها .

همت بأن تسعى إلى الشاب ، أن تتوسل إليه ، أن ترّامى عند قدميه وتستصرخه للرحمة والمغفرة . ولكن شعورها بما كان لسلطانها عليه من قوة ، أشعل كبرياءها ، وألقى فى روعها أن الشاب لا بد أن يعود صاغراً إليها . فأبت أن تهدر كرامتها ، وآثرت أن تنتظر . فانتظرت طويلاً ، وتعذبت طويلا ، ولكن على غير جدوى .

ولما برّح بها اليأس ، وألفت نفسها وقد حرقتها اللوعة ، وسحقتها الحسرة ، وافترسها الكمد ، تواجه فجأة فراغ قلبها ، وترتد فى مثل خطف البرق إلى وحدتها المظلمة ، ارتعدت فرائصها ، وتبددت كبرياؤها ، وعادت فاستقدمت شوكت ، وأقبلت عليه ملهوفة ومتواضعة .

وكان ذلك فى ليلة من ليالى الصيف ، والقمر فى تمه ، وضوؤه الساطع ينصب من النافذة ويغمر وجه شوكت .

وتقدمت مندورة فى بهرة الضوء وابتسمت ... ابتسمت لشوكت ، فأسرع إليها ، وأمسك بيدها ، ولبث يحدق إلى عينيها كالعابد المذهول .

وفى تلك اللحظة دوى فى الشارع صوت بائع التمر حنة. فأومأت إليه الفتاة بأصبعها . فأدرك الكهل مرادها ، وانطلق من فوره ، ثم عاد يحمل إليها الباقة وهو يلهث .

وتناولت مندورة أعواد التمر حنة ، وراحت تتأملها فى بطء وتتنشقها. ولكنها أجفلت وتراجعت ثم ردتها .

لم تحس للأعواد أى عبير ... لم تر فيها أى جمال ... لم تشعر على الإطلاق بأن فيها شيئاً من روائح تلك الجنة الخالدة التى حملها إليها بالأمس شوكت ... وتفرست فيه ، فرأت لحمه المتهدل ، وكرشه المتكور ، وعينيه الجاحظتين . فذكرت ممدوح ، وذكرت جماله ، وذكرت شبابه ، وصرخت فى صوت خانق وهى تلقى بالأعواد ، وتدفع شوكت كأنما هى تطرده :

— أبداً ... أبداً ... لن أتزوج أبداً !

فتطلع إليها الكهل ذاهلاً مبهوتاً وخيل إليه أنها قد جنت !

* * *

وعادت مندورة الشيخة إلى منسكها ، واتشحت بالسواد من قمة

رأسها إلى أخمص قدميها ، وعكفت على الصوم والصلاة وحياكة الجلاليب والفساتين لجاراتها ، كى تجمع قرشًا على قرش ، وتحقق الحلم الأمثل الذى أصبح وحده غاية حياتها ، وهو أن تحج بيت الله الحرام وتزور النبى الحبيب وتسعد ! ...

شيطان المساء

١

كانت « الست مشيرة » امرأة وديعة وطيبة ، مؤمنة وتقية ، صافية النية ، خالصة السريرة ، لا تستطيع أن تكره أو تحقد أو تلحق الأذى بمخلوق . فما الذى طرأ عليها فجأة ؟ ... لقد تسهدت ليلة أمس وأضناها التفكير الطويل . فهبت من فراشها فى صميم الليل وظلت مؤرقة تفكر ، ثم عادت ورقدت ، ثم لاح ضوء النهار ، فنهضت وتوضأت وأدت صلاة الصبح فى وقتها .

وحاولت النوم . ولكنه استعصى عليها . فأخذت تروح وتغدو فى غرف البيت مذهولة وشبه تائهة ... هالها ما انتابها فجأة من تبدل غريب . هالها شعورها بأنها لأول مرة تكره ، ولأول مرة تحقد . فأسرعت واستغفرت ربها عما ساورها من نزعات السوء ، ثم تلفتت وأنعمت النظر فى « جلال » أنعمت النظر فى زوجها وهو يغط فى نومه وارتعدت فرائصها ... كيف وقع هذا ، ومن ذا الذى كان فى وسعه أن يتصور حدوث شىء مثل هذا ... إن زوجها ، زوجها الذى كان بالأمس مثال الورع والتقى ، يستمسك بشعائر الدين ويحرص على تأدية فروض العبادة فى مواقيتها ، زوجها الكهل الذى أشرف على الستين واضمحلت قواه وأوشكت الشيخوخة أن تعصف به ، أمسى وكأنه قد فقد البقية الباقية من عقله ، ينزع إلى الحياة ، ويتوق إلى الدنيا ، ويخالس حباً محرماً ،

حباً منكراً وأثيماً ، ممثلاً في مَنْ ؟ ... في شخص « إلهام »، ... في ابنتها ... ابنتها من زوجها الأول المتوفى ... ابنتها الصبية الجميلة التي لم تناهز بعد ربيعها العشرين ! ...

والعجيب أن جلال الذى لم يعقب خلفاً ، هو الذى ربى تلك الفتاة اليتيمة ، وهو الذى تعهدها بعنايته أكثر من سبع سنوات ، وهو الذى كان يحبها حب والد لولده . بيد أن الفتاة لم تكد تشب وتترعرع وتزدهر أنوثتها في كيان غض نضير ، حتى تغيرت نظرة الرجل إليها ... أصبح يحادثها وهو خائف ، ويلاطفها وهومذعور ، ويتفرس فيها وهو مبتهج وذاهل ، كأنه حيال قوة ملكت عليه مشاعره واستقرت من جسده وروحه في الصميم ! ... أجل . لقد استغرقته عاطفته ، واستبدت به نشوته . فبات يتخبط كأعمى ولا يفكر لحظة في ما يمكن أن تكون عليه حياته ، وما يمكن أن ينتهى إليه مصيره ومصير امرأته لو فوجىء بالضربة القاصمة ، وتزوجت إلهام ، واختطفها منه رجل غريب ...

وأرسلت الست مشيرة أنة مخنوقة ، وهتفت لنفسها وهى ترتجف : رجل غريب ؟ ... إن غريمه ليس بالرجل الغريب . . . إنه شقيقه ... إنه شاب ... إنه « عاطف » ... شقيق زوجى ... هو أيضاً يحب ابنتى . وهى تحبه . وكلاهما لا ينشد في الحياة أكثر من أن يكون زوجاً لصاحبه ... فالأخ الأكبر يعشق الفتاة ، والأخ الأصغر ينازعه فيها . ولسوف تدنو الساعة المرهوبة ويصطدم الشقيقان . وعندئذ تهرع ابنتى الوحيدة إلى أنا وتلتمس منى أن أنقذها . فماذا يجب على أن

أفعل ، وأى السبل يجب أن أسلك ؟! ... لا ... أبداً ... لن تتزوج إلهام بشقيق زوجى ! ... لن تتزوج عاطف وإن كانت تحبه ... يجب أن تبتعد عنا ... لقد طلبها « مصطفى » ويجب أن تقترن به وتتبعه خارج القطر حيث يعمل ... أما أنا فلن أشفق عليها وإلا حطمت حياتها لو بقيت هنا .... إن واجبى اليوم أن أسرع إلى مصطفى ، أن أحثه على الثبات فى وجه زوجى ، أن أعده وعداً قاطعاً بأنى لن أقبل غيره زوجا لابنتى ! ...

وصعدت الست مشيرة نفساً مستطيلا ، وانسلت إلى الفراش بجوار زوجها ، ولكن النوم كان قد امتنع عليها ، فظلت تتمتم ببعض الأدعية والأوراد وهى ساهمة شاردة .

وفجأة تبدد الصمت حولها ، وترامت إليها من راديو جارهم المدرس الأستاذ عبد الرحيم ، أصداء أغنية مرحة مجلجلة ، تنشدها مطربة يتقد فى صوتها العذب نداء الأمل وفرح الحياة . فانبعثت من صدر الست مشيرة تنهدة عميقة أعقبتها زفرات ، وجاشت فى نفسها الحسرة على حظها التاعس وشبابها الضائع . فملكها الأسى ، وأوشكت أن تطفر من عينيها الدموع .

* * *

ولم يكن على زوجها أن ينهض مبكراً إلى عمله فى الوزارة. فاليوم كان يوم جمعة . فلبث فى الفراش بمفرده ، يتقلب ويتمطى حتى ساعة متأخرة من الصباح . وبغتة فتح عينيه شبه ملهوف وصفق . فأسرعت

إليه الست مشيرة . ولكنه لم يكترث لها ، وصفق أيضاً ونادى إلهام . . . فأقبلت الفتاة حاملة صينية عليها قدح الشاى وأطباق الفول والجبن والمربى. فنظر جلال إلى الفتاة وتألق وجهه المغضن ، وانفرجت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة كبيرة مهللة ومرحبة ... وطوق الفتاة بذراعه فى رفق ، وأجلسها على الفراش بقربه فى حنان . وطفق يشرب ويأكل ويدعوها إلى مشاركته ، وهو يشخص فى بهجة وطرب إلى عينيها السوداوين الساحرتين، وجدائل شعرها المشوش الغزير ، وجبينها الساطع ، وخدها اللامع ، وبدنها اللين الغض الذى كانت تهزه ضحكاتها البريئة فيتماوج ويتثنى أشبه بغصن تداعبه هبات النسيم . أما الست مشيرة التى كانت قد ارتدت ثوبها الأسود وتلفعت بطرحتها السوداء وتهيأت للذهاب إلى بيت مصطفى ، فقد كانت تسارق زوجها النظر وهى مطرقة ، تعض على شفتيها ، وتزفر وتتصعب ، وتحول وجهها نحو الباب كى لا تسمع ولا ترى .

وضاق زوجها ذرعاً بتلكؤها وصاح : إذا كان فى نيتك الذهاب لزيارة فلا تتأخرى ... أما أنا فلن أخرج ... سأبقى ... سأبقى هنا فى صحبة إلهام . . .

فحزت الكلمات فى صدر المرأة وجمدت . أما جلال فعاد يلاطف الفتاة ، ويجذبها إليه فى خفة ، ويدس فى فمها قطعاً صغيرة من الخبز محشوة بالمربى ، والفتاة تلتهم القطع وتضحك ، وهو يضحك لضحكها ولا يفتأ ينعم النظر فيها ويتأملها . فلم تستطع الست مشيرة احتمال المشهد وكبح سخطها . فصرت على أسنانها ، وشددت من عزيمتها ، وأسرعت

بارتداء معطفها وهمت بالخروج .

وفى تلك اللحظة ، سمع طرق على الباب ، وصوت مألوف يستأذن بالدخول . فكفت إلهام عن الضحك ، واكفهر وجه جلال ، وأجفلت الست مشيرة وقطبت حاجبيها . ولكنها بعد أن تنهدت وتصعبت ، تقدمت كارهة وموجسة وفتحت الباب .

وكان القادم هو شقيق زوجها ، هو عاطف .

ودخل الشاب ثابتاً متمهلا. وما إن أبصر إلهام قرب الفراش الذى استوى عليه شقيقه ، حتى تقبضت عضلات وجهه وارتجف . بيد أنه تمالك نفسه ، وحيا الجميع فى ابتسامة مغتصبة . ثم رمق إلهام بنظرة معنوية عازمة ، وارتمى على معقد ، وقال لأخيه وهو يشعل سيجارة : أظنك لن تخرج اليوم ... أليس كذلك ؟ ... لى إليك حديث . ولقد انتهزت فرصة العطلة لأخلو طويلا بك .

فلمعت عينا إلهام ، ووثبت من فرط الفرح ودخلت مخدعها . أما الست مشيرة فهزت رأسها ، ومشت إلى الخارج كأنها تزحف . ولما أوصدت الباب على زوجها وأخيه ، آلت على نفسها أن تبقى وأن ترجئ زيارتها لمصطفى . فلم تتحرك ، وظلت حيث هى . ومضت ترهف السمع ، وقلبها يخفق ، وأنفاسها تتعاقب ، وعزمها الباتر يقر فى نفسها الصبر والتجلد والهدوء .

* * *

وتطرح عاطف على مقعد وجعل يحدق إلى شقيقه تحديقاً فاحصاً . ثم

قال فى صوت جهير وهو يشتف من سيجارته فى بطء ويرسل ذوائب دخانها فى الفضاء : لقد عدلت ... عدلت عن الزواج بإلهام ! ...

فبهت جلال ، ثم أبرقت أساريره . ولكنه لم يصدق سمعه وأراد أن يستوثق . فلم يمهله الشاب وأردف : فكرت طويلا فيما قلته لى أنت أول من أمس ... لذلك عدلت ...

فارتمى جلال على أخيه كأنه يريد أن يعانقه وهتف : صحيح ؟ ... ألم أقل لك ... كيف كان يمكنك أن تعيش مع إلهام لو تزوجتها ؟... أمثلك يمكن أن يعيش معها ؟ ... مع امرأة لم تتلق غير قشور من التعليم ، جاهلة وخاملة وقعيدة بيت ؟ ... أنت اليوم محام ناشئ وممتاز ، ولا بدّ أن تشتهر غداً وتنفتح أمامك أبواب أرقى الأسر والمجتمعات . أنت فى حاجة إلى امرأة ترفع بها رأسك . امرأة مستنيرة ومثقفة مثلك ... إن إلهام تصلح لغيرك ، أما لك أنت فحرام ... حرام ... وأنا أحمد الله من صميم قلبى على أنك تعقلت يا عاطف وعدلت ...

والتقط أنفاسه وهو جذلان وصاح : ألك فى قدح شاى ؟ ...

فعاجله الشاب بنظرة كاسرة ، وقال وهو يشير إلى الحائط ، والحقد يدوى فى صوته : انظر ... أليست هذه مرآة ؟ ... إن غاية ما أطلب منك هو أن تتحول فترة وتنظر فى المرآة ...

فابتسم جلال مستغربًا وقال : ماذا تعنى ؟ ...

فأجاب عاطف : انظر ... انظر إلى وجهك وعينيك وشفتيك ... ما رأيت فرحة مرتسمة على وجه إنسان كالفرحة التى أراها الآن مرتسمة

على وجهك . . . ولكنك لن تنعم بهذه الفرحة طويلا يا جلال . لن أدعك تنعم بها على حساب مخلوق طاهر برىء مسكين ...

واستطرد على الفور وهو يهدر : لقد ضللتك ؟ . . . أتسمع ؟ . . . ضللتك لأفهمك تماما . . كنت مع كل ما لاحظته عليك أريد أن أكذب ظنى فيك ، ولكنى الآن وثقت وتيقنت ... أنا ما زلت أحب إلهام ... وما جئت اليوم إلا لأطلب يدها .. لا منك أنت بل من أمها صاحبة الحق الأوحد عليها . لقد خرجت وسأنتظرها !

فامتقع وجه جلال امتقاعا مروعا ، وأمسك بأخيه ، وقال وهو يرتعش ودمه يغلى : كنت تخدعنى إذن وتنافق ؟ ... ولكنى لن أعطيك إياها ... الفتاة يتيمة الأب وأنا اليوم والدها . أنا الذى كفلتها وربيتها ، ولن أزوجها بشاب ما يزال غامض المستقبل والمصير .

فدفعه عاطف وقال وهو يوشك أن يضحك : كنت تقول العكس منذ لحظة ...

فاختلج جلال وردد : لن تأخذها ... لن تأخذها ...

واحتبست الكلمات فى صدره وكاد أن يختنق . ولكنه اندفع وصاح : لو تم ذلك ، فسأنفض يدى . .. أتفهم ؟ .. . سأنفض يدى من كل شىء ... من البنت والأم على السواء ؟ ...

فجحظت عينا عاطف وقال : تهددنى بطلاق امرأتك لتحرجنى . . . لتقهرنى ؟ ... ألى هذا الحد بلغ بك هوس الغيرة وجنون الحب ؟ ...

فتراجع جلال مستنكراً وتمتم : ماذا ... ماذا تقول ؟ . . .

فصرخ عاطف فى وجهه : أنت تحبها ... نعم ... لا تحبها كوالد بل تحبها كرجل . رجل حسى شهوانى لا قلب له ولا ضمير . لماذا كنت وما تزال تبذل المستحيل لتصرف الخطاب عنها ؟ لماذا كنت وما تزال تستخدم كل ذكائك وخبثك لتضع العراقيل فى طريق زواجها ؟ لماذا كنت وما تزال تهمل امرأتك التاعسة المنكودة وتهتم بإلهام وحدها ؟ بل لماذا أصبحت اليوم تكرهنى أنا ... أنا شقيقك ، وتأبى إلا أن تمنع زواجى بها ؟ ... أنت تحبها ... أنت أعمى عن كل شىء ما خلاها هى ... فماذا ... ماذا تريد ؟ ...

واشتد هياج عاطف وأردف : أتريد أن تعطل ما استطعت زواجها لتستدرجها فى غد وتغويها وتتخذ منها خليلة لك ؟ ... بنت زوجتك تصبح يوماً خليلتك ! ... أى رجل أنت ، وماذا حل بك ؟ ... أنسيت بمثل هذه السرعة ماضيك ؟ ... لقد كنت مثال الرجل المؤمن الورع التقى . كنت تؤدى الصلوات فى مواقيتها ، وتصوم حتى النوافل غير المفروضة ، وتعتزم أيضاً حج بيت الله . فهل تلبسك فى مساء العمر شيطان ؟ ... ألا ترى فى المرآة نفسك ؟ ... ألا تخجل من شعرك الأبيض الذى تخضبه بالأصباغ ، ومن عينيك اللتين لولا نظارتك لم تعرف بهما طريقك ، ومن غضونك المجتاحة ، وأسنانك النخرة ، وصدرك المقوس المتداعى الشبيه بصدر مسلول ؟ ... لن أدع إلهام فريسة لك . سأتزوجها وأنقذها منك !

فذهل جلال وانسحق . ثم نظر إلى أخيه فى دهشة ، ثم إلى نفسه فى شرود . وفجأة تشنجت عضلاته ، واتسعت حدقتاه ، وشع منهما بريق وحشى وجعل يردد : أبداً ... أبداً ...

وعندئذ فتح الباب ، ودخلت الست مشيرة ، محتقنة الوجه ، متصلبة الأعضاء ، وقالت فى هدوء وعزم : لن أزوج ابنتى إلا بمصطفى !

فصاح جلال كمجنون : كنت هنا ؟ ... عظيم ... ولكن إلهام لن ترحل ... لن أدعها تحت رحمة رجل فى بلد غريب ... لن تتزوج إلا بمن أختاره أنا ! ...

فعيل صبر عاطف واندفع نحو الباب وصرخ : إلهام... إلهام ...

وتقدم وأمسك بيد الفتاة ، وقال لها وهى تقبل مهرولة ومذعورة : أمك تفرض عليك الزواج بمصطفى ، وعمك لا يريد أن يزوجك بأحد على الإطلاق !

فرددت الأم بصوتها القاطع : بل ستقترن بمصطفى .

فقال الشاب : إذن فأنا ذاهب كيلا أعود !

واستدار ليخرج ، فصرخت إلهام : عاطف . . .

فتوقف ونظر إليها . فرفعت إليه الفتاة عينين عاجزتين زائغتين تائهتين ، وارتج بدنها كله ، وانفجرت من عينيها الدموع . فشخص إليها عاطف وغمغم متوسلاً : تكلمى يا إلهام ...

فقالت الأم : لن تتكلم إلا بما أردته أنا .

ولكن إلهام لم تلتفت إليها ، ولا إلى عاطف ، بل نظرت إلى عمها

فقط ، إلى جلال ، إلى جلال الذاهل الشارد . وفى حركة أقوى منها ، فى حركة طارئة وعاتية ، أسرعت وارتمت عليه، وألقت برأسها على كتفه، وصاحت وهى تضمه إلى صدرها وتجهش بالبكاء: بابا ... بابا ... ليس لى سواك ... أنت وحدك الذى تحبنى ... أنت وحدك الذى تريد أن تسعدنى ... أنا أتعذب يا بابا ... فلا تكن أنت أيضاً قاسياً على كأمى ... لا تحرمنى من عاطف ... وإلا فقد أموت يا بابا .. سأموت ... لا بد أن أموت .

وكانت تتكلم وهى تحضنه ، وصرخاتها المتعاقبة تنهب سمعه ، وشعرها الأسود الغزير يتهدل على صدره ، وأنفاسها الحارة تهب عليه وتطوقه . وكان هو يشعر بنضرة البدن الزاهر تملأ ذراعيه فيرتعد . كان يرتعد ويتمزق . كان موزع النفس بين إغراء البطش واستنكاره ، بين فرح التعذيب وفظاعته . كان الحيوان الرابض فيه يدفعه إلى التنكيل بإلهام وحرمانها ممن تحب ، وكان الأب الراقد فى أطواء قلبه يدفعه إلى الترفق بها والشفقة عليها . ولم يكن يعرف إلى أى الصوتين يتجه وإلى من منهما يستجيب . وبغتة وفى غفلة منه ، ضمته إلهام إلى صدرها ضما عنيفاً ومبتهلا . فأحس ناراً تشب منها ، وتندلع من بدنها الغض ، وتوشك أن تأخذه فى وقدها الجارف وتحرقه . فاستهول ملمس الفتاة ، وانفتحت عيناه المسلوبتان وأدرك ... أدرك فى لحظة كل شىء . تنبه وعيه ، وتفتق ذهنه ، وذكر كل كلمة من الكلمات الكاشفة التى نطق بها أخوه . أيقن أنه يشتهى الفتاة : أيقن أنه لا يحبها فقط كوالد .

أيقن فى قرارة نفسه أنه مستمتع ومجرم وشيطان وأن إلهام لو ظلت فى بيته ولم تتزوج، فهو لا بد أن يحاول ... يحاول أن يلوثها ، أن ينتهكها ، ولو راكم حوله الأطلال والأنقاض . فلم يستطع أن يتصور . لم يستطع أن يحتمل . فأراد أن يسرع قبل أن يضعف ، أن يقطع قبل أن يسقط . فاستجمع مدخر قواه ، وأمسك بالفتاة ، ونحاها عنه فى عنف ، ثم دفع بها إلى أخيه ، وقال وكأنه ينتزع شغاف قلبه بيده: خذها !... خذها ياعاطف ! ... ولكن احرص عليها ! ...

فذعرت الأم وهمت بأن تصرخ . ولكنه صاح فيها : اسكتى ...

ثم أهاب بشقيقه وصوته الغائر يتحشرج : ماذا تنتظر ؟ ... لماذا أنت هنا ؟ ... اليوم يوم جمعة ... اخرج معها ... متعها بالدنيا... إنها خطيبتك ... اذهب بها ومبروك عليك يا عاطف ...

فانهارت الأم على مقعد . وأسرع عاطف ، الذى لم يصدق وذهبت بلبه الفرحة وارتمى على أخيه، وعانقه ، وجعل يلهج بفضله ويستغفره . أما إلهام التى استغرقتها هى أيضًا فرحتها، فقد التصقت بخطيبها ، وخرجت فى صحبته مبهورة ومأخوذة ، دون أن تكترث لأمها، أو توجه كلمة شكر إلى جلال الذى كان يتبعها النظر والحسرة تأكله وشيطانه يحوم حوله ويكاد أن يلهب فيه عوامل الكمد والحرقة ويشعره بالندم على ما فعل .

* * *

وما إن خيم الصمت والفراغ على الرجل والمرأة ، حتى اندفعت الست مشيرة نحو زوجها ، وقالت له وهى ترتجف : لماذا خذلتنى ؟ . لماذا لم ترض بزواجها من مصطفى . كيف يمكنك أن تعيش غداً معى ... هنا ... فى هذا البيت ... بعد أن تتزوج إلهام ؟ ... أنت ما زلت تحبها ... أنت تتعذب لفراقها ... لا تكذب ... سوف تسعى إليها ... إلى بيت عاطف ... إلى بيت أخيك .. فيشتد كرهك لى وقد لا تحتمل وجودى . أنا خائفة منك وخائفة عليك يا جلال ...

فرفع إليها بصراً تائهاً ، ثم جال به حوله. فأحس بالفعل كأن بيته قد أقفر من حركته ، وأقفر من أهله ، وكأن بهجته قد اختفت ، وروحه قد انطفأت ، والكآبة والوحشة والفراغ قد استقرت فى جنباته ، وأحالته إلى عالم حالك الظلمة مرهوب الصقيع. فانتفض وتصور فى اللحظة نفسها عالماً آخر ، عالماً أشد من عالمه حلوكة وهولا ، عالماً يقتحم هو فيه حرم أخيه ، ويخون عهداً قطعه على نفسه لأخيه ، ويطارد امرأة هو نفسه قد زوجها لأخيه . فاقشعر بدنه ، وظل ينقل الطرف فى ما يحيط به ، ويلوى برأسه جاهداً ليتنفس ، كان لا حيلة له فى شيطانه الذى ما يزال متشبثاً به وممسكاً بخناقه .

وكان الصمت المخيم على البيت قد تلاشى منذ لحظات ، وبدأت صلاة الجمعة فى أحد المساجد . فترامى إلى سمع الرجل وامرأته من راديو جارهم المدرس عبد الرحيم ، صوت الإمام جليلاً مهيباً يتلو فاتحة الكتاب ، وإصغاء المصلين يصاحبه فى غمغمة ملؤها الخشوع والتقديس .

واختتمت الفاتحة وردد المصلون : « آمين » . وعندئذ وقد عاد وانتشر فى الجو صمت غامر وعميق ، ارتفع صوت الإمام بالآيات الكريمة : « ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك ... » فبهت جلال واختلج اختلاجاً عنيفاً وأطرق . أحس كأن الآيات الكريمة قد تليت من أجله هو ، وأنه هو المقصود بالرحمة ، وهو الموعود بالخلاص ، وأن الله الذى خف لنجدته ووضع عنه وزره ، يطالبه بأن يقدر نعمته عليه ، وأن يستأصل من قلبه كل هوى أثيم . فتطلع إلى النافذة المفتوحة ، ومنها إلى الفضاء الرحيب . ثم تحول إلى امرأته . فألفاها وقد أسرعت وبسطت سجادتها ، تشرع فى تأدية صلاة الظهر . فحدق فيها وهى تصلى ، ولبث يحدق فيها منعماً متأملاً حتى انتهت من صلاتها . وإذ ذاك ، والآيات الكريمة ما تزال تتردد فى سمعه ، وتهز روحه من سباتها الغاشم ، وتبعث فى خياله المتقد صفحات ماضيه ناصعة البياض ، تبدلت فجأة قسمات وجهه ، وانسكب عليه صفاء عجيب مقرون بعزم راسخ . فلم يتمهل ومشى . . . مشى لفوره واتجه صوب منضدة صغيرة ، وعاد والمصحف فى يده ، وارتمى على السجادة أمام امرأته . ثم وضع يسراه على كتفها ويمناه على المصحف الشريف ، وقال فى سكون وقد شع من عينيه بريق ساطع : أقسم بالله العظيم ، وبكتابه المجيد ، أنى لن أرمق إلهام أبداً بنظرة نابية ، ولن أدخل أبداً بيت شقيقى إلا ... إلا وأنت معى !

فحملقت فيه المرأة واستضاء وجهها . تنهدت ولم تتكلم . بل تناولت المصحف وقبلته ، ثم انحنت ملهوفة وقبلت يد زوجها ...

النّداء الأعلى

كان يلذ للأستاذ عبد الجواد أو لعبد الجواد بك ، أن يحتقر زوجته ، ويستخف بعقلها ، وينظر إليها من عليائه ، ويكايدها مكايدة خبيثة لئيمة دائبة .

كان رجلاً قصير القامة ، داكن السمرة ، غائر العينين ، غليظ الشفتين ، أصلع مقدمة الرأس ، لا يستطيع أن يتصور نفسه قميئاً ودميماً ، فيحاول أن يثأر لقصر قامته بالإمعان فى مظاهر التكبر والترفع والاستعلاء ، وأن يثأر لدمامته بالإقبال على شتى ضروب التأنق ، يفتن فيها ، ويسخو فى الإنفاق عليها ، ويحرم أحياناً فى سبيلها زوجته وأولاده الثلاثة حتى من قوتهم الضرورى .

وكان لا يحمل غير شهادة فى التجارة المتوسطة ، فأسعده الحظ وعين رئيساً على بعض صغار الكتبة فى الوزارة التى يعمل فيها . فلم يصدق سمعه وبصره ، وامتلأ زهواً وغروراً ، وشرع يثأر أيضاً لقصره ودمامته بالتحكم فى مرءوسيه ، والاستبداد بهم ، والإسراف فى محاسبتهم على كل صغيرة ، وإجبارهم على مراجعة عمل مرهق أنجزوه لمجرد غلطة عارضة يمكن أن تصحح فى يسر دون أن تلحق بالعمل أى تشويه .

وكما كان يجد لذة عميقة فى الاستبداد بمرءوسيه ، كذلك كان يجد لذه عميقة فى الاستبداد بامرأته وأولاده . كان فوق تعاليه على زوجته « الست نعيمة » لا يفتأ يعذبها بنزوات أشبه بنزوات طفل مدلل شرير . فيصدر إليها أمراً ثم ينسخه ، ويطلب إليها تهيئة طعام معين ثم ينبذه ،

ويفرض عليها عملاً يكبدها جهداً شاقاً ثم يتبرم به ، ويتنقص من قيمته ويحكم بفشله ، ثم يفرض عملاً غيره وهو مثلج الصدر نشوان . وكل ذلك ليذل امرأته ، ويفرح لحيرتها ، ويبتهج لتخبطها ، ويشعر بتفوقه الدائم عليها ، ويمثل فى بيته دور السيد المطلق صاحب الكلمة المرهوبة الفاصلة . أما أولاده الثلاثة فكان يعاملهم على اعتبار أنهم يجب أن يكونوا صوراً أوشخوصاً لا مخلوقات . كان يريدهم طائعين ساكنين جامدين ، متصفين بالأدب والرصانة والاجتهاد ، يستذكرون دروسهم فى دأب ، ويقبلون أيدى الكبار من الضيوف فى احترام ، ولا يتكلمون إلا بإذن والدهم ، ولا يلعبون إلا بأمره ، ولا يشتهون إلا ما يمكن أن يقدمه لهم ، وإلا صب جام سخطه على أشدهم عصياناً وتمرداً، واندفع يضربه ضرباً مبرحاً ، متوعداً الست نعيمة بالطلاق إن هى صرخت وولولت وحاولت أن تخف لنجدة ولدها المستصرخ المسكين .

وكان بعد أن يضرب أولاده ليؤدبهم أو بعد أن يعذب امرأته بإذلالها ومكايدتها وفرض نزواته الجائرة عليها، يتبدل فجأة ويبتسم ثم يضحك كأنه قد نسى كل ما فعل . ثم يقبل على امرأته ويمازحها ، ثم ينفح أولاده ببضعة قروش ، ثم يعود فينظر إلى الجميع مستكبراً ، ثم يتجه إلى مخدعه فيتجمل ويتعطر ، ويرتدى بدلته الخضراء الصارخة ، وصداره الصوفى الأصفر المخطط ، ويخرج متعاظماً متخطراً ، إلى حيث المقهى الذى اعتاد أن يرتاده ، والذى تؤمه نخبة مختارة من علية القوم وكبار الموظفين ...

والحق أن عبد الجواد كان يعرف أنه يظلم مرءوسيه وأهل بيته وكان يشعر أنه يثأر منهم عامداً لنقصه . ولكنه كان كلما أراد أن يضبط أعصابه ويكافح شعوره بالنقص ورغبة الإذلال ، يتلفت حوله فيبصر الست نعيمة فيزداد حنقًا وكمداً ، فيتفاقم فيه إحساس النقص ، ويدفعه إلى الإمعان فى الكبر والغطرسة ونزعة التحكم والاستبداد .

وكان يغيظه فى امرأته أنها نقيضه ، برغم كونه قد اختارها وتزوجها لأنها نقيضه . كان يغيظه منها أنها طويلة القامة وهو قصير ، وأنها رائعة الجمال وهو دميم ، وأنها فوق ذلك صامتة وصابرة ومتحملة ، بل أبية وشامخة وعزيزة ، تقابله مهانة بترفع ، وكبراً بكبر ، واحتقاراً باحتقار .

فظهرها الساكن الأبى المقرون بالحسن الباهر والبدن الفارع والصبر المجتقر ، كان يحز فى صدره ، ولا يدفعه إلى الإسراف فى التعاظم والتحكم فقط ، بل فى الغيرة على امرأته أيضًا .

كان يغار عليها غيرة طائشة حمقاء . كان يريد أن يؤكد رجولته بقوة غيرته ، ويعوض نقصه بعنف حرصه ، ويدلل على سلطانه بفرض أدق وأقسى ضروب الرقابة على امرأته . وكان يحبها ويخفى حبه لها ما استطاع . كان يحبها لإحساسه الخفى بضعفه وتفوقها ، واضطرابه وهدوئها ، وافتعاله العظمة والكبر ، وأصالة العزة والشموخ فيها .

وكانت الست نعيمة ، وهى بنت تاجر غلال كبير جار عليه الزمن ، قد ألفت الإباء والعزة ، لا لشعورها فقط بما كان عليه والدها من

مكانة مرموقة ، ولا ليقينها من أن زوجها لم يكن أبداً جديراً بها ، بل لفرط إحساسها بأنها جميلة ، وأنها برغم زواجها غير المتكافئ ، الذى أجبرت عليه لما أصاب والدها من إفلاس ، وبرغم جمالها الرائع الذى يبهر أبصار الرجال ، لم تتنكر لحظة واحدة لتقاليد أسرتها المحافظة ، ولم ترتكب فى حياتها أية هفوة يمكن أن تشينها . فإحساسها بجمالها وعفتها وطيب منبتها ، هو الذى كان يخلع عليها تلك العزة المكينة الآسرة ، فيخلب لب عبد الجواد ، ويضرم فى أعماق نفسه نار غيرة عاشقة حاسدة مستبدة آكلة .

والواقع أنه كان يحبسها فى البيت الأيام الطوال ، ولا يسمح لها بزيارة الأهل والأصدقاء إلا فى رفقته ، ولا يجيز لها استقبال أى قريب أو صديق فى غيبته ، ولا يخرج بها إلى المتنزهات أو السينما إلا مرة كل شهرين ، ولا يكف عن زجرها وانتهارها متى أبصرها تتأنق وتتجمل وهى على أهبة الخروج معه .

وكان كثيراً ما يترك عمله فى المكتب ليهبط فى البيت بغتة ويفاجئها ، فإذا ما أبصرها فيه ، أبرقت عيناه ثقة وفوزاً واطمأن . وإذا لم يجدها وقالت له الخادمة إنها تزور إحدى الجارات ، استفسر عن الجارة خشية أن تكون امرأته قد عصته وزارت فى العمارة سيدة لها شقيق مستهتر عزب أو زوج ماجن خليع . ولما كان يستوثق من أن الست نعيمة لم تتجاوز فى أى تصرف من تصرفاتها الحد الواضح الذى رسمه لها ، كان برغم اطمئنانه يتململ ويغتاظ ، ويود لو أنها تكون قد عصته بالفعل هذه

المرة ، كى يجد سببًا واقعيًّا يمكنه منها ، ويغلّبه عليها ، فيسرع هو ويخلق أى سبب ، ثم ينفجر ويثور ، ويظل يصيح ويصرخ ، وعيناه الغائرتان تتوهجان ، وشفتاه الغليظتان ترتعشان ، والعرق يتصبب على رأسه الأصلع ، والست نعيمة تنظر إليه ثابتة جامدة، وتتأمله فى برود متقزز مترفع كأنها تتحداه .

ولم يكن فى وسعه بعد أن يشفى غليله منها ويتخلص من توتر أعصابه ويستريح ، إلا أن يهمهم ويدمدم ، مخفياً خجله ، ساتراً ضعفه ، ممعنًا فى تعاظمه ، ثم يكر راجعًا إلى المكتب حيث يثأر من هزيمته فى مرءوسيه .

وعندئذ كانت الست نعيمة ترتمى على كنبة ، وتأخذ أولادها الثلاثة فى حضنها ، ويفيض بها الحنق والذل والضيق ، فتختلج اختلاجًا عنيفًا ، وتنهمر من عينيها الدموع .

وكانت تبكى وهى تفكر ، وتختلج وهى تحلم ، وتضم أولادها إلى صدرها فى لهفة مشبوبة كأنها تستنجد بهم ، وتحاول أن تستمد من فرحة قربهم ونعمة وجودهم قوة تقيها شرًّا متربصًا وخطراً مستطيراً .

ولم تكن الست نعيمة قد عرفت فى حياتها رجلاً غير زوجها. لم تكن قد اتصلت بأى شاب وهى عذراء ، ولم يكن قد تقرب إليها وغازلها وأطرى محاسنها بعد الزواج أى رجل .ولكن ها هى ذى اليوم ، وزوجها الأنانى الفظ الغليظ يستبد بها ، ويجحد فضلها ، ويتهمها فى استقامتها وولائها ،

ويأبى إلا أن يحقرها ويسجنها ، خانقـًا فيها كل كرامة وكل حرية وكل حياة ، ها هى ذى اليوم ترى الرجل الساحر الجميل الغريب بعين خيالها ، وتبصر طيفه المرهوب منبثقـًا من بين هياكل أولادها ، وتحس وهج كلماته ، وخفق أنفاسه ، ورجفة بدنه ، وعذاب تلك النظرة المتوسلة الممزقة الشائعة فى عينيه التائهتين البديعتين .

لماذا دخل هذا الرجل بيتها ؟ . . لماذا أراد الله أن يكون هو بالذات الرجل الوحيد الذى يدخل بيتها ؟ . . . بل لماذا وكيف اصطفاه زوجها ووثق فيه واطمأن إليه وفتح له أبواب بيته ، وهو الذى يغار على امرأته حتى من أشقائه ، ولا يطيق أن تقع عليها عين رجل فيه لمحة من جمال أو شبهة من جاذبية وإغراء ؟ . . .

لم تفهم الست نعيمة كيف جلب زوجها هذا الرجل إلى البيت . لم تفهم طبيعة زوجها الغيور . لم تفهم أن الغيور مخلوق غريب الأطوار ، وأنه إذا كان يرتاب فى الجميع فهو قد يثق فى واحد ، وأنه برغم عنف الغيرة المستولية عليه قد يتبرم بأن يعيش مع امرأته فى عزلة كئيبة تفرضها عليه غيرته . فيتوق مكرهـًا إلى تآلف عاطفى وفكرى لا يجده بالطبع فى زوجته التى يعذبها والتى تنفر منه . فيندفع فى الغالب إلى اختيار صديق فرد ، معتقداً تحت تأثير اعتداده بنفسه ويقينه من تسلطه المطلق على زوجته ، أن هذا الصديق أضعف منه شخصية ، ودونه قوة ورجولة ، وأنه لا يمكن أن ينظر إلى امرأته نظرة سوء حتى ولو كان شابـًا وجميلاً .

وهذا ما وقع لعبد الجواد . أحس أن العزلة الكئيبة تخيم على حياته

بسبب غيرته ، وأنه وزوجته قد استحالا إلى شبه وحشين يتصارعان فى قفص ، فخشى إن هو فرج عن نفسه بالفرار من بيته والإسراف فى السهر فى صحبة أصدقائه أن تشك امرأته فى مسلكه وتتمرد يوماً عليه وتفكر فى خيانته ، فآثر أن يمكث معظم لياليه بجوارها ، وأن يصطفى له صديقاً واحداً مأموناً ، ينعش جو بيته ، ويلطف من وطأة كآبته ، ويشيع روح البهجة والمرح فيه .

وهكذا اختار ابن عمته « رءوف » الإنسان الحالم الوديع المريض ، صديقاً فرداً مقرباً أثيراً . فتألق بالفعل جو البيت ، وبهجت الست نعيمة ودبت فيها الحياة فترة . ولكنها ما لبثت أن انكمشت وتجهمت ، وأحست لأول مرة عوامل القلق والاضطراب والخوف .

وكان رؤف شاباً عزباً فى نحو الخامسة والعشرين ، يشتغل بتدريس فن الرسم ، ويعرض أحياناً بعض لوحات من صنعه ، ويهوى الطرب والغناء ، ويقرض الشعر أيضاً فى ساعات فراغه . وكان فتى منكوباً مصاباً بداء الصدر ، واسع الحدقتين ، ملتمع الوجنتين ، مهزول البدن ، يبدو لأول وهلة خجولا ومنطوياً ، ولكنه متى استأنس بمن حوله ، وتشجع وابتسم واسترسل فى الحديث ، جلجل صوته ، وتدفقت كلماته ، واتقدت عباراته ، وشعت من عينيه السوداوين القاتمتين بوارق خالبة تتراقص فيها أطياف غريبة وأحلام عجيبة وأضواء مذهلة . فكان إذ ذاك يتكلم كأنما هو ينظم شعراً وينشده فى رخامة وحماسة وفرح . بيد أنه كان لا يكاد يتعب حتى يسعل ويصمت ، فيكفهر

وجهه ، وينطفئ بريق عينيه . فيطرق إطراق التأمل والأسى ، كأنه يتحسر على نفسه ، ويتحسر لعجزه عن جعل الشعر حقيقة ، والخيال واقعاً ، والحلم وجوداً حياً يزخر بالنور والحركة والجمال .

ولم يكن رءوف قد أبصر الست نعيمة إلا فى لمحات خاطفة خلال بعض زيارات قصيرة قامت بها لسيدات أسرته مصحوبة بزوجها . فلما دخل بيتها وجلس إليها ، وأنعم النظر فى جمالها الخارق الشامخ المعتز ، تولاه بالرغم منه ضرب من وجوم وشرود أصابه أول الأمر بلكنة وعى . أحس كأنه معقود اللسان ومخنوق ، بل كأنه خيال قوة كان يحلم بها ولم يتصور أبداً وجودها . فانتابته عوامل القلق والاضطراب والخوف هو أيضاً . فأراد أن يرحل ، أن يكف عن زيارة البيت ، أن يتملص من عبد الجواد ويفر . ولكنه كان فناناً وشاعراً . فجذبه الجمال والسحر . فلم يستطع إلا أن يخضع ويعود . . . راعه من المرأة جلال مظهرها ، وخفر حركاتها ، وهيبة تخفظها ، ودقة قسمات وجهها الهادئ ، وفتنة امتلاء بدنها الغض ، وسحر عينيها العميقتين الحزينتين ترف عليهما أهدابهما الطويلة كأنها تذود عنهما لحقة الناس . فظل رءوف بضعة أيام واجماً وشارداً وعيياً ، ثم فاض به إعجابه . فأطلق العنان للسانه كى يخفى اضطرابه وهو طائر اللب مبهور . ولكنه خشى أن يوجس الزوج منه . فجعل يتخبط بين الكلام والصمت ، بين التبسط والانطواء ، بين النظر المفاجئ إلى الأرض والتطلع فى نشوة إلى المرأة الخارقة البهاء .

وأحس رءوف شيئاً فشيئاً أن هذه المرأة هى ضالته المنشودة . هى

الجمال نابضاً ، والشعر حيًّا ، والوحى فياضًا بأروع الصور والخيالات . فلم يعد يكلف نفسه عناء ضبط نفسه ، وطفق يتكلم ويبدع ، ثم يصمت ويكتئب ، ثم يتكلم أيضاً ويبدع ، وهو يرمق الزوج فى يقظة . وحذر محاولاً أن يكسب ثقته ، ويرقد شكوكه ، ويطويه فى غمرة حديثه الشائق ، ويأخذه فى شبكة كلامه المبتكر المنمق الجميل .

ولكى يعيش رءوف منقطعاً لحلمه ، موصول الفكر والروح بضالته ، هجر بيته وأهله ، واستقر عند زميل فقير ، شاءت المصادفة الرحيمة أو الساخرة أن يكون منزله مطلاً على منزل الست نعيمة .

وهكذا كان رءوف يتنفس على مقربة منها ، ويغافل صديقه لا ليغازلها أو يخاطبها بل ليلمحها فقط ، ويتخذ من هذه اللمحة قوت نهاره ريثما يهبط الليل فيلتقى بها فى بيتها .

وكان لفرط تلهفه على رضاها ، يدخل فى بعض الأمسيات حاملاً عوده ، فيرحب به عبد الجواد ، ويلتف حوله الأولاد مهللين ، وتنظر إليه الست نعيمة فى شوق وقلق . فيجلس رءوف حانياً رأسه على العود ثم يسعل سعالاً جافًّا متقطعاً ، ثم تتوه عيناه ، ويندفع ويغنى أنشودة لأم كلثوم أو دوراً لسيد درويش ، فيحملق فيه الأولاد مأخوذين ، ويهتف له عبد الجواد متأوهاً ومشجعاً ، وتظل الست نعيمة تحدق إليه فى إعجاب وقلق ، ونظرته الشاردة ترجفها ، ورنين صوته الخفيض الحنون يذهلها ، ونغمة الدور الشاكية الأليمة المنبعثة من صدره الممزق فى

تضرع وابتهال تذيب قلبها ، وتزعزع أعصابها ، وتوشك أن تفجر من عينيها الدموع .

ومع ذلك فقد كانت الست نعيمة تكبح جماح نفسها ، وتعتدل وتتزن فى الإعراب عن إعجابها . أما عبد الجواد فكان يعجب برءوف وهو يستخف به ، ويمتدحه وهو يسخر منه ، ويطرب لغنائه وهو يتنكت من طرف خفى عليه ، ويحمسه ويشجعه وكأنه يهزئه ويثأر منه . . . كان برغم ابتهاجه واعتزازه بألوان النبوغ التى يمتاز بها صديقه ، يأبى إلا أن يحقرها ، ويشوهها ، كى يخنق كل تأثير يمكن أن يحدثه الشاب فى نفس امرأته ، بحيث يظل هو المتفوق فى نظرها عليه ، ويظل الشاب مجرد تابع له ، ومحض أداة يستخدمها للمرح والتسلية والتفريج .

والواقع أنه كان ينظر إلى رءوف نظرة السيد إلى مهرجه ، فلا يقربه إلا ليتعالى عليه ، ولا يستزيده حديثاً أو غناء إلا ليمعن فى تهزيئه وهو جذلان . .

وكان رءوف يتجاوز عن كل هذا ويحتمل . بل كان يدرك تمام الإدراك ما يعتمل فى نفس عبد الجواد . فكان يضحك لضحكه ، ويشاركه فى عبثه ومجونه ، وينكت هو نفسه على نفسه ، ويمثل عن طيب خاطر دور المهرج الذى فرضه الزوج عليه . بيد أنه وهو يبذل قصاراه فى التضاؤل أمام رب البيت ، كان يجاهد جهاد المستميت فى التفوق عليه . فينطلق فى حديثه الشائق تارة ، ويفتن فى غنائه الساحر أخرى ، وينشد قصائد من شعره فى تحمس عاطفى محموم ، عساه أن يرد اعتباره

فى عين الست نعيمة ، برغم القفشات الصارخة والنكت اللاذعة التى كان يسددها زوجها إليه .

وكانت الست نعيمة تلحظ همه وجهاده . فتسارقه النظر فى وجل ثم تبتسم له ابتسامة خاطفة كأنها ترفه عنه ، وتشعره بقيمته ، وتمسح بابتسامتها ما أصابه من ذل وهوان . وعندئذ كان الشاب يفقد صوابه . فيبدع فى الحديث إبداعاً رائعاً ، أو ينشد الشعر إنشاداً خالبا ، أو يحلق فى الغناء تحليقاً يخيل معه إلى الست نعيمة أن بيتها الكئيب قد اختفى ، وأن آلامها المريرة قد زالت ، وأن الأرض حولها قد أشرقت وتألقت واختلطت فجأة بالسماء .

وأحست المرأة أن قلبها يخفق ، ونفسها تتقد ، وحياتها الضيقة الخانقة تبدو أمامها رحبة الفسحات ، مليئة وقشيبة ، يغمرها فرح دافق وقرير .

واحتواها الفرح بالرغم منها ، وأطلقها بغتة من عقالها ، فشرعت تتحرك وتتنفس وتعيش .

بدأت تتجمل فى حيطة ، وتتكلم فى حذر ، وتضحك فى ارتباك . ثم أسلست قيادها لفرحتها ، فتجملت فى صراحة ، وتكلمت فى طلاقة ، وضحكت فى نشوة وزهو وخيلاء .

ولم تكن قد استرعتها قبل ذلك أية فتنة من مفاتن الدنيا ، بل لم تكن قد تنبهت لحظة إلى أن الوجود باهر وعظيم . فلما أيقظها الفن واستبد بها الفرح مضت تغافل زوجها وتنهض فى صميم الليل ، كى تتأمل

روعة البدر الكامل وهو يصب ضوءه الساطع على فراشها ، أو تهيم في الليل الساجي وهو يوسوس بأحلامه في أذنها ، أو ترقب انبثاق الفجر الفاتن وهو يخلع نوراً من البنفسج الناضر على حياتها .

وفطنت إلى سحر الوجود المتألق حولها والمنبعث منها . فدبت في كيانها الخامل حيوية طارئة أذهلتها ، فكانت في الصباح وهي قابعة في المطبخ ، تخرط الملوخية ، أو تعصر الطماطم ، أو تقشر الباذنجان تقفز فجأة وبلا سبب ، وتضحك للشمس المتدفقة عليها من النافذة وتدندن بعض مقاطع من الأدوار التي يغنيها في الليل رءوف ، ثم ترتمي على أولادها وتنهب منهم القبل ، ثم تركض في المطبخ رشيقة خفيفة مجنحة كأنها تمرح في حديقة غناء .

ومع ذلك فقد كانت تخاف وترتعد . كانت تدرك بفطرتها السليمة الأبية أن كل هذه العواطف المحتشدة في صدرها ، قد تعصف يوماً بماضيها النقي وتهلكها . ولكنها في الوقت ذاته كانت تحس أن هذه العواطف أصبحت واسطة حياتها ، وينبوع وجودها ، ومصدر الفرحة النادرة التي كشفت لها النقاب عن وجه الدنيا . فأرادت أن تتشبث بها وتذود عنها على أن تستخدم كل عزمها وإرادتها وكبرها وما غرسته فيها بيئتها المحافظة من مبادئ وتقاليد ، كي تصون فكرها من التهور ، وماضيها من التشوه ، وفرحتها من الدنس ، وتكتفي بالعواطف المجردة التي أيقظها في نفسها رءوف ، وتنهل منها ، وتعيش بها ، وتجد فيها عزاءها ، دون أن تنظر إلى الشاب الذي أثارها باعتباره رجلاً من لحم ودم ، ودون

أن تخلط لحظة فى ميلها إليه بين نعمة الصداقة ولعنة الهوى .

وأثلج هذا العزم صدرها ، وضاعف من فرحها واطمئنانها . فلم تكف عن العناية بأناقتها ، ولم تكف عن التبسط فى حديثها وضحكها . ولكنها استطاعت أن تضبط نفسها ، وتوازن بين كل مناسبة ومقتضياتها ، ولا تسرف فى الكلام والضحك أبداً ، بل تحتفظ بوقارها وهى مبتهجة ، وترقب ذاتها وهى متنبهة ، بحيث لا تدع أية حركة من حركاتها أو نظرة من نظراتها تلقى فى روع رءوف أن فيها ولو شبهة من ميل أثيم إليه ، يمكن أن يغريه بها ، ويشجعه على اقتحامها .

أما رءوف فكان منذ البدء قد فهمها . كان قد نفذ ببصيرته المشرقة إلى جوهر نفسها . كان يعلم علم اليقين أنها امرأة معصومة بكبرها ، محصنة بعقلها ، منيعة بإرادتها وماضيها ، وأن من المحال عليه أو على أى رجل سواه أن يزعزع سلطانها على نفسها وينال منها فى النهاية مأرباً . فكان وهو يفتن فى حديثه أو غنائه أو إلقاء شعره ، لا ينشد فى أعماق نفسه أكثر من أن يروق فى عينها ، وأن يظفر بإعجابها ، وأن ينسى مرضه الوبيل بجوارها ، وأن يتقلب فى جوها ما استطاع ، ويعيش هو الآخر بفرحة العاطفة المجردة التى توحيها إليه ، ونضرة الأخيلة الشائقة التى يستمدها منها ، وروعة الشعر الخالص الحى المتدفق من محض وجودها . وكان فوق ذلك وبرغم احتماله من زوجها شتى ضروب السخرية والمهانة والتهزىء ، لا يفكر لحظة فى خيانة قريبه وصديقه ثأراً منه ، بل يمضى فى التجاوز والاحتمال ، ولا يطلب إلا أن يحتمل أيضاً ،

ويظل طوال عمره مهرجًا للزوج ومسخًا ، على أن يملأ من الست نعيمة بصره وقلبه وخياله ولو مرة واحدة كل أسبوع .

بيد أنه فى الواقع كان يحبها أشد الحب ويتعذب . . . كان يتعذب لأنها زوجة صديقه ، ويتعذب ليأسه منها ، ويتعذب لشعوره وهو الرجل الضعيف العليل أن لاحق له فى التطلع إليها أو إلى غيرها ، ولا قدرة له على إنقاذها وإسعادها كما يتمنى ويشتهى .

وكان يلحظ استخفاف زوجها بها ، وغيرته منها ، واصطناعه الخشونة والفظاظة فى معاملتها تعويضًا لنقصه . فكان يزداد ولعاً بها ، ويزداد حسرة على نفسه وعليها ، ولا يستطيع إلا أن يبدع فى فنونه، كى يشارك المرأة فى حزنها ، ويلطف عليها ولو بعض همها ، ويحملها إلى جو طليق جميل ويسرى عنها .

كان برغم عذابه سعيداً بهذه الحياة ومكتفيًا ، كما كانت المرأة أيضًا سعيدة ومطمئنة ومكتفية . بيد أن عبد الجواد لم يكن غافلا . ولم يكن رجلا متبلد الذهن غبيًا . كانت غيرته تفتح عينيه ، ونقصه يلهب ذكاءه ، ورغبته فى تعويض هذا النقص بالتفوق الدائم على رءوف ، تمكنه من السيطرة على عقله ، وملاحظة كل حركة أو نظرة تبدر من زوجته أو من صديقه .

وكان فى مبدأ الأمر ، ولفرط اعتداده بنفسه ، لا يستطيع أن يتصور أن ذلك المخلوق الغر الخيالى المريض ، يمكن أن ينقلب فجأة إلى رجل جذاب ، ويحاول أن يتفوق عليه ويهزمه . فلما أحس على مر

الزمن وأدرك أن المهرج قد تغلغل شيئاً فشيئاً فى بيته ، وأنه استحال فجأة إلى قوة سحرية عجيبة لم تسلبه هو قدراً كبيراً من هيبته ومكانته فقط ، بل استهوت أيضاً قلب زوجته دون ما حاجة إلى مغازلات صريحة ، أو نظرات نابية ، أو عبارات ملتوية تنم عن حب وغرام ، هاله هذا التحول الذى جلبه بنفسه على نفسه . فاشتعل نقصه ، واضطرمت غيرته ، وحار واضطرب ، ولم يعد يدرى ماذا يجب عليه أن يفعل . كان يخشى على زوجته ، ويضن فى الوقت ذاته بصديقه . كان يستنكر تحول امرأته ، ويتشبث مع ذلك بمهرجه . كان يستعذب حديث رءوف ويطرب لغنائه ، ثم يستبد به شعور النقص فيعجز عن التحرر من لذة امتهان الشاب وتهزيئه .

وأراد أن يصرفه . أن يطرده . ولكنه تمثل الكآبة البغيضة التى لابد أن تعود وتخيم على بيته ، وتمثل العزلة المريرة التى لابد أن تخنقه وتخنق امرأته . فتمهل أياماً ، وتروى طويلا ، ثم اهتدى آخر الأمر إلى فكرة أعجبته وأيقن أنها هى التى ستعوض نقصه ، وهى التى ستحفظ عليه كرامته ، وهى التى ستغنيه عن رءوف ، وتجذب إليه الست نعيمة ، وتبقى على جو البهجة والمرح الشائع فى بيته .

ولم يتردد ، وتصاغر بدوره عامداً ، وطلب إلى رءوف أن يعلمه العزف على العود . . .

واستغرب الشاب هذه النزوة وبهت لها . أما الست نعيمة فقد أذهلتها من زوجها رغبته الطائشة ، فحاولت أن تثنيه عن عزمه حرصاً

على كرامته . ولكنه استمسك بفكرته ، وتزلف إلى صديقه ، ورجاه واستعطفه . فانخدع رءوف وازدهى واعتقد أن نزوة الرجل ستوثق صلته به . فأجابه إليها وهو مبتهج ، واصطحب عبد الجواد ذات مساء ، واشترى له عوداً لين الأوتار جميلاً ، وبدأت على الفور دروس العزف والغناء .

بدأت الدروس فى جو عاصف بالضحك ، زاخر بالتلهف ، مثير وطريف وعجيب . فكان رءوف يعزف ويلقن وينبه ويغنى ، وعبد الجواد يحتضن عوده ، ويرهف سمعه ، ويلتقط ويراجع ويقلد ويتخبط ، ثم تأخذه فجأة حمى الطرب ونشوة الغيرة والمنافسة ، فيفتح فى تحمس شدقيه الواسعين ، ويلوى فى حمية شفتيه الغليظتين ، ويرجف فى حرارة رأسه الأصلع ، ثم يندفع ويغنى . فينبعث من حلقه صوت أشبه بمواء الهررة ، أو « نعير » الساقية ، أو صراخ دجاجة على وشك أن تذبح . فيفزع الأولاد ثم يضجون بالضحك ، فيعاود رءوف الدرس مسلماً أمره إلى الله ، وتتطرح الست نعيمة فى مقعدها ، وتظل تتفرج على زوجها ، وهى ترشقه بنظرات كليلة حزينة ملؤها التهكم والرثاء .

ولم يكترث عبد الجواد لا لترخصه ولا لتهكم امرأته ولا لضحكات أولاده ، بل لم يحز فى صدره لحظة أنه أصبح هو المسخ وهو المهرج . فظل يتسمع ويتدرب ويتمرس ويحتمل ، حتى خيل إليه أنه قد حذق أصول الفن ، ومهر فى العزف ، وبرع فى الغناء . فكشر إذ ذاك عن أنيابه ، وتجهم لصديقه ، ثم أشعره فى عزة وصلف وبرود أنه غريب

ودخيل وغير مرغوب فيه .

ووقع هذا الأمر وقع الصاعقة على رءوف والست نعيمة .

أجفل الشاب ولم يصدق ، ثم استفاق وتيقن . فتحطم أمله ، وتفطر قلبه ، وهوى بغتة من ذروه حلمه ، واصطدم بالأرض الصلبة وأفاق .

لم يجد كلمة يقولها . لم يجسر حتى على العتاب . لم يستطع حتى أن يتوسل . أدرك أن كل جهوده في إهدار كرامته ذهبت أدراج الرياح . أدرك أن صديقه لم يعد في حاجة إليه حتى كمسخ . أدرك أنه عليل وفقير ، وأنه قد تهالك في غرور على طلب المحال . فأحس إحساساً محرقاً ومذيباً أنه كان بالفعل غير مستحق لأية متعة من متع الحياة ، وأن الخيال نفسه أصبح محرماً عليه ، ونعمة اشتهاء السعادة في الحب ولو بالوهم لم تعد من نصيبه ، ومجرد التطلع إلى مجالسة الشعر والفن بنية خالصة لم يقسم له ، وأن التخبط في لجة الوحدة والحسرة والمرض والعذاب ، هو حظه الجائر الذي كان مرصوداً منذ الأبد له .

وحنى رأسه في انكسار وذل وسلم . ولكنه قبل أن ينصرف كي لا يعود ، ذكر الليالي المشرقة الخصبة الزاهرة التي كان يقضيها بجوار معبودته ، وذكر ابتسامتها الخاطفة الراضية الشفيقة التي كانت تقنعه بأبدية حلمه . فعز عليه أن يرحل ، وكبر عليه أن يطرد . فعانق في لوعة عوده الغادر ، ونظر إلى الست نعيمة ، وجاشت عواطفه بالرغم منه ، وطفق يغني في صوت متضرع متهدج كأنه يستغيث :

« تركت أهلى وملت لك
والناس بتعطف ع الغريب
وأنت لك أخلاق ، أخلاق ملك
دانـــا قلبى انشبـــك
امتى وصالك ياقمر . . ؟ »

وما إن أتم أغنيته وأحس أن الدمع يوشك أن يسيل من عينيه ، حتى تنبه واستنكر وخجل . فنهض من فوره والسعال يكاد أن يبعث الدم من صدره ، واستجمع قواه وصافح المرأة وزوجها ، ثم قبل الأولاد الثلاثة، وتمهل وألقى على الست نعيمة نظرة كأنه يريد أن يدمجها فى كيانه قبل أن يرحل ، ثم تجلد وتماسك ، ودفع الباب فى رفق وخرج .

وظلت الست نعيمة شاردة جامدة ، تحدق إلى الأرض كأن هوة قد احتفرت عند قدميها . لم تنطق هى الأخرى بكلمة واحدة . لم توجه إلى زوجها أية نظرة . تشنجت أطرافها ، وتلاحقت أنفاسها ، ولم تستطع أن تتحرك . ثم غلبها الضيق والكمد ، فنهضت بعد فترة ، ونادت أولادها ، وأرقدتهم فى حجرتهم ودخلت ملهوفة إلى مخدعها . ولكن عبد الجواد الذى كان يرقبها ساكنًا متربصًا ، لمعت عيناه . فأسرع هو أيضًا ودخل المخدع ، يريد أن يؤكد انتصاره على غريمه وعليها بأن يظفر على التو بحقه الزوجى منها . فتطلعت إليه المرأة فى ذعر ، وبسطت يديها فى توسل . ولكنه ضمها إلى صدره فى عنف وقبلها . فلم تتمنع

وتصلبت وأدت واجبها . فأثلج الفوز صدر الرجل . فخرج إلى فسحة البيت ثم كر راجعاً إلى المخدع يحمل العود . ولكي يضاعف نشوته ، ويحل محل خصمه ، ويكافئ امرأته ويطربها دون أن يزعج الأولاد النيام ، جلس على حافة السرير ، واحتضن عوده وأمال رأسه الأصلع ، وشرع يعزف ويغني بصوت أبله أجش كريه ، والمرأة تشخص إليه بعينين خامدتين ، وتحس أن سمعها يتهشم ، وبدنها يتمزق ، وأنفاسها تكاد تختنق .

ولم تصدق الست نعيمة أن رءوف قد ذهب كي لا يعود . لم تصدق أن وقدة حياتها يمكن أن تفتر ، وفرحة قلبها يمكن أن تخمد ، وبهجة بيتها يمكن أن تزول . بل لم تصدق أن في وسع زوجها أن يكتفي بعوده ، ويستغني عن صديقه ، ويرتد إلى جو العزلة الكئيبة التي أراد هو نفسه بالأمس أن يتخلص منه .

والواقع أن عبد الجواد لم يكد يصرف رءوف ويستفيق بعد أيام ويحس أن نبرات صوته تخونه ، وأوتار عوده تخانده ، وأنه بعزفه وغنائه يؤلم امرأته بدل أن يطربها ، وينفرها بدل أن يجذبها ، ويصبح في نظرها مثار تقزز بدل أن يكون موضع إعجاب . لم يكد يحس هذا حتى ناء عليه من جديد شعوره بنقصه . فصبا قلبه إلى صديقه ، وفكر جاداً في مصالحته . ولكنه كان في الوقت نفسه يذكر تأثير الشاب على زوجته فيهلع ويرتجف . كان يخاف منه ويود مع ذلك أن يستقدمه . كان يفزع من سحره ولا يطيق مع ذلك أن يعيش بدونه . كان لابد له أن

يحقر إنساناً ويذله وينكت عليه . فظل يتأرجح بين حاجته إلى رءوف وبين خوفه الشديد على امرأته التى كان ما يفتأ يتصورها وهى تبتهج لمقدم الشاب ، وتحدق إليه بعينين مشدوهتين . فاشتعلت غيرته كما لم تشتعل أبداً ، والتهب كبره وعناده ، وأبى أن يستقدم الشاب ، ولم يجد متنفساً لنقصه وضيقه ، إلا فى الثأر من أولاده ومرءوسيه وزوجته نفسها .

وعاد يستبد بها ويسلط عليها حقده وغيرته ، ثم ينقلب فجأة ويمازحها ، ثم يجذبها من ذراعها وهى مذهولة ، ويجلسها عنوة أمامه ، كى ينهال عليها بعزفه المشوش وغنائه المهشم ، مجبراً إياها على الإشادة بفنه ، فارضاً عليها الإعجاب بصوته والهتاف لمواهبه .

ولما كانت تسايره وتطريه تخلصاً من لجاجته كان يدرك أنها تكذب عليه وتمالئه . فيزداد غيظاً منها ، ومكايدة لها ، وحنقاً على نفسه لأنه لم يستطع أن ينافس رءوف ويتغلب عليه ويتمكن من استمالة المرأة وإخضاعها .

وأيقنت الست نعيمة أن رءوف لن يعود ، وأن زوجها قد أحلها محله ، واتخذها هى فريسة بدلاً منه . فضاقت ذرعاً بعذابها ، وفقدت زمامها ذات يوم ، وثارت لأول مرة وعلى الرغم منها فى وجه زوجها . صارحته وهى ترتجف بأنها لم تعد تحتمل طغيانه ، وأن صوته يكربها ، وغناءه يثير أعصابها ، ثم طلبت إليه أن يذهب ، أن يترك البيت ، أن يكف عنها ، أن يسهر ما شاء ، أن يبحث له فى الخارج عن صديق آخر يتخذ منه فريسة ، وأن يدعها هى سجينة فى بيتها تخدم أولادها وتستريح .

وكانت قاسية فى غضبتها ، مروعة فى ثورتها . فاستهول عبد الجواد وهو الرجل الذى يدارى نقصه بغطرسته ، أن تشعره امرأته بهذا النقص وتتطاول بمثل هذه الجرأة عليه . فتاه عقله ، ورفع كفه بالرغم منه ، ولأول مرة صفع زوجته .

وبهتت الست نعيمة وحدقت إليه . تجمدت أعضاؤها كلها تجمداً ملؤه الكراهية والبغض ، ولبثت تتفرس فيه . وفى تلك اللحظة فقط ، فى تلك الدقيقة فقط ، أحست المرأة إحساساً جارفاً ، إحساساً طاغياً ، أنها لم تعد تعرف هذا الرجل . أحست أنه قد بتر من حياتها ، واستؤصل من جثمانها ، وانسلخ إلى الأبد عنها ، وأنه سواء أراح بعد اليوم أم جاء . أطغى أم ترفق ، أضرب أم احتضن ، فهى لن تراه ، ولن تشعر بوجوده ، ولن تحن للمسه ، ولن تتقلب فى بيته المظلم الكئيب الدميم إلا كما تتقلب آلة صماء سخرت لتأدية الواجب وضمان المصلحة .

وعلى دهش منها ، وفى غفلة من عقلها الواعى ، وتحت تأثير الإهانة المنكرة التى أصابتها فى صميم عزتها وكبريائها ، لاح أمامها وجه رءوف ، ودوى فى سمعها صوته الساحر ، وانسكبت عليها ابتسامته الوديعة ، ونظرته الحزينة ، وفرحة الحياة التى كانت تهدر فى صدره ، وتتدفق من حديثه وغنائه وشعره ، وهو معذب ومحروم وعليل . فاحتواها الوجه وغزاها . فاستضاء بغتة عقلها ، ورأت بعين بصيرتها حقيقة نفسها ، وأدركت إدراكاً واقعاً ساطعاً حياً ، أنه لم يعد لها فى هذه الدنيا بعد اليوم غير هذا الفتى الذى احترمها ، وأيقظ قلبها ، وأطلق عواطفها ،

وأفعم كيانها بالحياة .

أدركت أنها تحبه ، وأنها كانت وما تزال تحبه . ولكنها فى اللحظة نفسها أدركت أيضًا وأحست وتيقنت أن رءوف يتصل بشيء أبعد وأعمق وأسمى من تراب جسدها الفانى وحفنة حياتها الدنيوية الزائلة . أدركت أنها لم تحبه أبداً بالجسد ، وأن حبه كان وما زال أغلى وأبقى من كل شهوة ينبض بها الدم ويختلج بها الجسد . وكانت هى نفسها قد عافت ملذات الجسد لفرط استبداد زوجها بها ، وكانت فوق ذلك من أولئك النساء العزيزات اللاتى لا يمكن أن يتصورن أن فى وسعهن أن يهبن أنفسهن لغير رجل واحد . فاعتزمت أن تصون أيضًا ذاتها ، وتصون بيتها وأولادها ، على أن تظفر فى الوقت نفسه بحقها ، وتتنفس وتعيش من حب رءوف ، فى ظل البراءة الخالصة ، والعفة الراسخة ، والطمأنينة الكاملة ، ولهفة القلب المكبل المخنوق على مجرد نسمة من حنان تبعث الحياة وتنعش النفس وتملأ فراغ الروح .

وكانت تعلم أن رءوف يحبها هذا الحب النقى نفسه . فكانت لا تطلب أكثر مما كان يطلبه هو . كانت لا تطلب أكثر من أن تراه ، أن تتصل بأسرته ، أن تجلس إليه على مشهد من أهله ، أن تتملى من نظرته وابتسامته وسحر حديثه ، كى تعود فتشعر أن الكون يتفتح أمامها ، وأن فى الطبيعة جمالاً يناديها ، وأن فى وسعها أن تنهض فى صميم الليل كما كانت تفعل ، وأن تتأمل روعة البدر الكامل ، وتشرب فتنة الفجر الوليد وهو يخلع نوره البنفسجى الناضر على حياتها .

واستقر عزمها على أن تنفض عنها عبء الضعف والخمول ، وأن تثبت فى قوة شخصيتها ، وتؤكد فى حزم إرادتها ، وتطالب زوجها الذى امتحن استقامتها عشر سنوات كاملة ، أن يطلقها اليوم من إسارها ، ويدعها تخرج لزيارة الأهل والصديقات بمفردها ، ويعترف لها فى النهاية بقسطها المشروع من الحياة ، وحقها المقدس فى الكرامة والحرية .

وكان قد بدا على عبد الجواد أنه استنكر من نفسه كيف رفع يده على زوجته ، وأنه يريد برغم كبره وصلفه أن يتقرب إليها على شرط ألا ينزل عن مكانته . فشجع مظهره الست نعيمة ، واعتقدت أنها لو صارحته برغبتها فى حزم وضيقت عليه الخناق وأحرجته ، فهو فى سبيل أن تصفح عنه وتقبل عليه ، لن يخيب سؤلها ولن يغامر بإثارة نزاع جديد . فاستجمعت قواها ذات يوم وتحفزت . تحفزت لتحقيق الحرية وطلب الخلاص . ولكن اليوم نفسه ، اليوم الذى اختارته لخلاصها أدهشها وأكربها ، واستغربت من الطبيعة لماذا أرادته أن يكون عاصفاً وملبداً .

كان يوم من أيام شهر مارس ، لاح فى مستهله رائع الزرقة ناصع الضياء . ففرحت المرأة باليوم المبتغى ، وأجالت الطرف فى سمائه وهى تلهث وتبتسم ، وإذا بريح عاتية ، ريح من رياح الخماسين تهب فجأة فيه ، وتشوه سماءه ، وتفسد هواءه ، ثم تصليه حرارة من لهب ، يملأ جوه بغبار أصفر دقيق كثيف ، يدور حول نفسه فى شكل أعمدة لذوية ، فيزهق الأنفاس ، ويعمى العيون ، ويجعل من الأرض كلها

شبه صحراء قاحلة يزمجر فيها إعصار .

وبهتت المرأة وارتعدت ، وظلت تحدق فترة إلى الجو الأصفر المعتوه ثم أسرعت وأغلقت نوافذ بيتها وأبوابه ، ومضت مع ذلك ، وقلبها يخفق تنتظر مقدم زوجها لتصارحه .

وبلغت الساعة الثانية والنصف ولم يعد عبد الجواد . ثم بلغت الثالثة ، فالرابعة ، فأيقنت الست نعيمة أنها كانت مخدوعة فى مظهر زوجها ، وأنه ولا ريب قد تغدى فى صحبة بعض رفاقه متعمداً أيضاً مكايدتها وإهمالها . فأبت أن تأكل ، واهتاجت أعصابها ، واشتد عزمها ، وراحت تجول فى فسحات البيت ، مغيظة ومحنقة ، والجو يثيرها ، والحر يخنقها ، وصورة الصحراء المروعة المنتشرة فى الخارج ، تحتل عينيها الزائغتين وتقبض قلبها .

ودخل عبد الجواد . دخل ممتقع الوجه ، محنى الظهر ، يتباطأ فى مشيته ، وينظر حوله فى سهوم ، وتشع من عينيه برغم اضطرابه بارقة خفية متهكمة باردة . فلم تكد تبصره الست نعيمة حتى انفجرت . قالت له إنها لم تعد تحتمل حياتها ، وإنها توشك أن تختنق فى سجنها ، وإنها لابد أن تتنفس وتعيش كغيرها ، وتخرج بمفردها متى شاءت ، وتزور أقاربها وصديقاتها ، وإلا فهى قد تفقد عقلها فى النهاية وتجن ، فتقضى على نفسها بنفسها .

واحتدمت ثورتها وصاحت :

— ألست أنا أيضاً إنساناً مثلك ؟ . أليس لى فى الحياة مثل حقك .

أنت تعلم تماماً أنى لن أسيء استخدام حريتى ولكنك تريد إذلالى إرضاء لكبريائك . بيد أنى منذ اليوم لن أسلم بأنك اشتريتنى لأنك تزوجتنى ... لا . . لن تحبسنى . . لن تمنعنى من الخروج. سأخرج . . سأخرج بمفردى . . أتسمع ؟ . . سأخرج . . .

فرشقها بنظرة ساخرة مستمرئة وقال :

– وإلى أين تريدين أن تذهبى ؟ . .

ثم عاجلها بصوت غائر :

– إلى بيت رءوف ؟ . أليس كذلك ؟

فشمخت برأسها وهمت بأن تجيب . ولكنه دنا منها ، وأمسك بذراعها ، وثبت فى عينيها بصره ، وقال فى صوت خفيض :

– لقد مات رءوف . مات اليوم فى بيته . . . أصابته نزلة رئوية لم يحتملها صدره الضعيف . ولقد كنت أنا الساعة هناك . وستشيع الجنازة صباح الغد !

فذهلت المرأة وصرخت :

– ماذا تقول ؟ . . .

فردد الرجل عباراته وهو جامد . فشخصت إليه الست نعيمة فى تأمل جنونى وطفقت تختلج . اختلجت اختلاجاً متداركاً مروعاً . ثم أحست ظلمة حالكة تغشى بصرها ، ويداً جبارة تهصر قلبها ، وشبه طعنات وحشية متعاقبة تتخطفها ، وتأبى إلا أن تمزقها وتستنزف دماءها .

ولبثت فترة تتطوح وكأنها توشك أن تسقط . ثم تماسكت بغتة وهتفت:

— أريد أن أراه . . . لابد أن أراه . . .

فصاح الزوج :

— أبداً . . . لن تخرجى . . . يمكنك أن تذهبى للعزاء غداً .

فتوهجت عيناها وقالت :

— بل سأذهب الآن .

وقبل أن يتنبه ويعترضها ويحاول أن يقطع عليها الطريق ، كانت قد ألقت عليها معطفها الأسود ، واختطفت حقيبة يدها ، واندفعت كمخبولة ومرقت من الباب. فثارت ثائرة الرجل وتبعها . اعتزم أن يردها عنوة كى تعد له طعام الغداء . ولكنه توقف بغتة وابتسم . ذكر أن غريمه قد أصبح الآن جماداً أبكم أصم غير مرهوب . فهز كتفيه ، ثم كر راجعاً ، ونادى الخادم ، واستعجلها أن تهيئ له طعامه . ثم فتح النافذة ، وأطل منها ، وعاد يبتسم وهو يشيع امرأته بنظارته المستمرئة المتشفية .

* * *

وانطلقت الست نعيمة فى الجو الأغبر الثائر المعتوه ، واستقلت سيارة حملتها إلى بيت رءوف ، وما إن دخلت البيت حتى ارتمت على صدر الوالدة المطعونة وعانقتها ، وعانقت أخوات الفقيد ، ومضت تقبلهن فى خبال وتجهش بالبكاء . ثم تملصت منهن وتسللت . تسللت بين رهط النسوة النائحات ، ودخلت الحجرة الزافرة المعتمة وأبصرت رءوف . أبصرته أصفر بلون النهار الغاشم ، معتصر التقاطيع التى كانت تبهرها ،

مخنوق الصوت الذى كان يخلبها ، مهدود القوى التى كانت تملأ بالفرح والنشاط حياتها ، مغمض العينين السوداوين الرائعتين اللتين كانت ترقص فيهما أعجب الأطياف وأغربها . ولكن الصفاء كان يغمر رءوف . الصفاء كان ينسكب عليه كبلسم إلهى . الصفاء كان يطوق وجهه بشبه هالة من نور . فحدقت فيه الست نعيمة ولم تر غير هذا النور . لم تر غير هذا الصفاء . فحدقت أيضاً ، وظلت تحدق . وأشربت النور والصفاء قلبها وعقلها وخيالها وروحها . ثم أطرقت وابتعدت ، وارتدت إلى أهل الفقيد وعزتهم . ثم كفت عن البكاء ، وتجلدت وتصلبت ، وقفلت راجعة إلى بيتها .

* * *

ومنذ ذلك اليوم تبدلت الست نعيمة واستحالت إلى امرأة أخرى . لم تعد تطالب بحريتها ، أو تجزع من قضبان سجنها ، أو تصبو إلى أى شيء من متاع هذه الدنيا . كانت بعد أن ودعت جثمان رءوف قد قطعت على نفسها عهداً مقدساً بأن تقضى العمر كله منزوية وطائعة وصابرة حتى تقترب النهاية وتدق الساعة الفاصلة .

قبعت فى بيتها ، ورصدت قواها على خدمة وتربية أولادها ، ومضت فى البيت ساكنة صامتة حائمة ، لا هم لها إلا البحث عن عمل يشغلها ، وواجب يستغرقها ، وجهد شاق تخلقه خلقاً ، وتتشبث به ما استطاعت وتتفانى فيه .

وكان الصفاء الذى تدفق عليها من جثمان رءوف يملأ قلبها ،

والنور الذى تفجر من هيكله يغمر كيانها ، والسلام العميق الذى انسكب عليه يترقرق فى صدرها كماء قراح ، ويطهر نفسها من كل حقد وكل ضغينة وكل كراهية .

لم تشأ أن تفكر فيما فعله زوجها . لم تشأ أن تفكر فى أنه هو المسئول عن كل ما وقع لها ، وربما كان هو المسئول أيضاً عن موت رءوف الذى لابد أن تكون الصدمة التى تلقاها عقب طرده قد هدت قواه ، وضاعفت من وطأة المرض الذى أصابه فى صدره المعتل ، فأعجزته عن مقاومته وقتلته . لم تشأ أن تفكر فى شيء من هذا ، خشية أن تبغض زوجها ، فتعاف قربه ، فتنقض العهد الذى قطعته على نفسها ، وتفقد نعمة الصفاء والسلام التى حلت عليها .

وهكذا لم تتجهم قط لقرينها . لم تتبرم لحظة بغطرسته . لم تحاسبه على استبداده . لم تضن عليه أبداً بنفسها ، بل غالبت حواسها النافرة وفطرتها المتأبية ، ووهبته ذاتها عن طيب خاطر ، كأنها تهب شيئاً قد اجتث منها ، وأصبح غريباً عنها ، ولم يعد فى قليل أو كثير عزيزاً عليها .

بيد أن هذا المسلك بالذات ، هذا المسلك القويم المفروض ، أثار ثائرة عبد الجواد .

أحس أن امرأته قريبة منه وبعيدة عنه . قريبة منه بمظهر الجسد وبعيدة عنه بجوهر الروح ، وأن جوهر روحها أصبح ملكاً لها . بل بات حرماً لا يدخله غيرها ، وأنه هو الآن كلما أنعم النظر فيها وتأملها لم يجد فى أخلاقها عيباً يسلط عليه نقصه ، ولا فى واجباتها

مطعنًا يسدد إليه غضبه ، ولا فى سلوكها مغمزاً يصب عليه جام استبداده وغيرته . فاستنكر منها هذا الكمال الخالص فى أخلاقها ، واشتد إحساسه بأن كمالها يتحداه ويجرده من كل سلاح ، وأن هذا الكمال الصارم ، هذا الكمال الدائب العنيد لا يصدر عنها هى ، بل عن تلك القوة الغالبة العزيزة الأثيرة التى اندست فى قلبها ، وانتشرت فى كيانها ، وتمثلت وما تفتأ تتمثل فى جسدها الذى يخونها بالرغم منها ويتقلص ويتقبض ، ويبترد برودة الصقيع ساعة القرب والهبة .

وتيقن أنها ما تزال تحب رءوف . تيقن أنها تحبه اليوم وهو ميت أضعاف ما أحبته بالأمس وهو حى ، وأنها لم تنزع إلى هذا السمو الخارق فى سلوكها وإلى هذا الكمال المطلق فى أخلاقها إلا لتظفر براحة الفكر والضمير ، فتستطيع أن تنقطع لحبها ، وتهب الطيف وحده الجزء الثمين الحميم من عقلها وقلبها وروحها .

وهاله موقفه منها ، وموقفها منه . هاله أن تكون امرأته فى بيته وهى ليست معه ، متصلة به وهى غائبة عنه . فأحس غيرة لم يحسها قط من قبل . غيرة محيرة مخبلة مسعورة ، تريد أن تصل إلى الغريم فتعجز ، وتريد أن تستقر منه على شىء فتخيب ، وتريد أن تنشب فيه مخالبها فلا تصطدم بغير الصمت والسر والظلام .

وكبر على عبد الجواد ألا تكون امرأته بالجسد والقلب والفكر ملكه وحده . فبدل أن يلطف من غلواء كبره ويحاسنها ، ويلاطفها ، ويترضاها ، كى يمحو من ذهنها ما أصابها منه فى الماضى ، وينتزعها

شيئاً فشيئاً من جاذبية تلك القوة المسيطرة عليها ويردها إليه ، سلك على النقيض مسلكه المألوف ، واستخدم الغلظة والعنف غير حافل .

واجه المرأة بحقيقة عواطفها ، ثم اتهمها بالغش والنفاق واصطناع الكمال فى أخلاقها ستراً لخيانتها ، ثم عيرها ببرودها ، وحقرها فى أنوثتها ، وطفق يحقر أيضاً ذكرى رءوف ، ويخلق له المساوئ والنقائص ، كأنه يريد أن يخمد طيفه فى نفس المرأة عنوة ، ويقتلعه ويستأصله ويرده إلى عالم الموت والعدم . بيد أنه كان يثور والمرأة هادئة ، وكان يمعن فى التجريح والمرأة لا تنطق بكلمة . وكانت هى فى غمرة غيبوبتها الحالمة ، تزداد بعداً وانطواءً وصفاءً وصبراً . فأحس الرجل كأنه يغمد سكيناً فى ماء ، أو يصارع ظلاً أو يحاول أن يقبض على هواء . فضاق صدره ، ونفد صبره ، وأراد أن ينبذ المرأة ، أن يطلقها . ولكنه كان مكبلاً بكسبه المتواضع ، وبأولاده الثلاثة ، وحاجتهم إلى أمهم . فآثر أن يبقيها ويستخدمها ويتمتع مع ذلك بها ، على أن يفر من البيت ما استطاع ، ويقضى ساعات فراغه فى المقاهى بصحبة رفاقه مطلقاً لأهوائه وميوله العنان ، باذلاً قصاراه فى ألا يكون غبياً ، وأن يكسب نفسه على الأقل ويربح الدنيا .

وكف عن المرأة وابتعد . وعندئذ تنفست الست نعيمة ملء صدرها وارتمت فى الحياة التى كانت تتوق إليها وتنشدها . ملكها العهد الذى التزمت به وقطعته على نفسها . فأبت إلا أن تبر بعهدها فى أكمل وأروع صورة يمكن لإرادة حبها ووفائها أن تبدعها .

اتشحت بالسواد من فرعها إلى قدمها . لم تعد تحفل حتى بالضرورى من مطالب حياتها . عكفت على الصلاة والصوم ، وتلاوة القرآن ، وقراءة الأدعية والأوراد ، ومحاسبة ضميرها على أقوالها وأفعالها ، بحيث لا تظل كامنة فى نفسها أيسر شبهة من ضغينة أو نميمة أو حسد أو أية رذيلة يمكن أن تلوثها وتشوه روعة حلمها .

وفاض من كيانها كله نور ساطع وعجيب . فافتتنت بها جاراتها ، وأكبرنها ، وقد سنها . فوهبت نفسها أيضاً للبائسات منهن ، ومضت تخدمهن فى تواضع ، وتخف لنجدتهن عند الشدائد ، وتعنى بأطفالهن المرضى ، وتزودهن بالنصائح الغالية ، وتحضهن على الصبر والإيمان والصلاح والتقوى .

وكانت فى غضون ذلك ، وبعد أن استغنت عامدة عن خادمتها ، لا تكف عن بذلها الخالص فى سبيل بيتها وأولادها . فتغسل المواعين بيدها ، وتكنس الأرض وتمسحها . ثم تجمع الأولاد حولها فى المساء ، وتهون عليهم دروسهم وتراجعها معهم ، وما تزال بهم تشجعهم وتحفزهم حتى يؤدوا جميع فروضهم على خير وجه ويأووا إلى أسرتهم مبتهجين .

ولما كان يجن الليل ، وتطول غيبة عبد الجواد ، وتعمق الوحدة ، وتهمد الحركة ، وينتشر الصمت الزافر المجنح المجيد ، كانت الست نعيمة تثب من مكانها ، وتنظر حولها فى فرحة . ثم يشرق وجهها ، وتتألق عيناها . فتسرع وتجلس حيث كانت تجلس بالأمس تجاه رءوف . ثم تشرئب بعنقها ، وتسدد بصرها ، وترهف سمعها ، وتتجه

بكل قواها إلى مستقر حلمها . فينبثق الطيف فجأة أمامها ، حزيناً شريداً ضاوياً ، ويبتسم لها ، ويخاطبها ، ويعاتبها . فتتحدث هي إليه في لوعة وأسى ، وتطيب خاطره ، وتستغفره وتستمهله ، مناشدة إياه حبها وولاءها ألا يعذب نفسه على هذه الصورة ويعذبها ، وأن يصبر أيضاً وينتظر لأن الساعة لم تحن بعد .

وكان الطيف يمتثل ويختفي . فتبسط الست نعيمة ذراعيها ، فيمتلئ الفضاء بالأغنيات القديمة التي طالما خلبتها . فتود أن تتوه فيها . فيسود الصمت بغتة ويخيم عليها . فتجيش حسرتها ، وتندلع عيناها ، وتظل تحدق إلى الفضاء الأبكم الغادر ، وقلبها يخفق ، ودمعها يسيل .

وتعاقبت الأيام والأسابيع ، والأشهر والأعوام ، وتصرم من عمر الزمن أكثر من خمس وعشرين سنة . شب أولاد الست نعيمة وترعرعوا ، وأتموا علومهم وتزوجوا ، وإذ ذاك ، إذ ذاك فقط ، أحست المرأة التي في شبابها وشاب شعرها ، أنها قد أدت واجبها ، وأبرأت ذمتها ، واستكملت جهادها . فاندفعت وأسامت نفسها إلى مقدس روحها ، واتجهت صوب الطيف بكل توقها ولهفتها واستعدادها فأقبل الطيف عليها مبتهلاً ، وجعل يستعجلها ويستصرخها . ولكنها استمهلته أيضاً واستغفرته وانتظرت . . . انتظرت وهي لا تدرى إلى متى يجب أن تنتظر . انتظرت وهي لاتدرى ماذا ينبغي لها أن تفعل ، ومتى يجب عليها أن تفي بالعهد ، وتبر بالقسم ، وتلبي النداء .

وظلت متحيرة وتائهة . وفى يوم من الأيام ، وكان قد اجتمع فى بيتها أولادها ، وزوجات أولادها ، وأولاد أولادها ، وجمع من الصديقات والأصدقاء ، وانطلق الكل يأكلون ويشربون ويمرحون ، استشعرت الست نعيمة شيئاً غريباً يخامرها ، وشيئاً عنيفاً يعتمل فى نفسها ويجذبها ، ثم يردها فى عنف نحو أولادها . فنظرت إلى أولادها وانخلعت . تأملتهم طويلا . تأملتهم فى زهو وفخار . رأتهم أمامها رجالاً . فتفطر قلبها أسفاً عليهم ، وأحست كأن شبابها الضائع يدب من جديد فيها ويهتف بها أن تتبعهم . . . وكادت أن تنسى . كادت أن تحنث . كادت من أجل أولادها أن تخون . ولكنها نظرت إلى نسائهم وتمثلت بيوتهم . فأيقنت أن أولادها ليسوا لها ، وأنها ربتهم لغيرها ، وأن أعزهم وأغلاهم سيكر راجعاً إلى بيته وامرأته وأولاده وينصرف هو الآخر عنها . فحدقت فيهم ، ثم حدقت فى زوجها وهو يثير حماستهم ، ويأكل فى شره ، ويشرب فى ظمأ ، ويترنح وينكت ويقهقه . فتحولت بغتة عنهم ونظرت بالرغم منها إلى النهار . نظرت إلى النهار فى سهوم . . وحينئذ ، وبينما هى واجمة ، بينما هى تائهة ، سمعت صوتاً ، صوتاً بعيداً ، صوتاً هامساً ، صوتاً فيه عذوبة خالبة وفيه أيضاً أمر قاطع وعنيد . فأجفلت وانتفضت وأنعمت النظر . فأبصرت النهار ، النهار الذى كان قد لاح فى مستهله رائع الفتنة ناصع الضياء ، أبصرته يتبدل فجأة ويتحول ، ويتخذ شكل الحياة فى ظلمها القاسى ، وتهب فيه نفس الرياح الصاخبة ، رياح الخماسين العاتية ، وتملأ جوه بغبار

أصفر دقيق ، يدور حول نفسه فى أعمدة مدوية ، ويحيل الأرض كلها إلى شبه صحراء يزمجر فيها إعصار .

وشخصت المرأة إلى الجو الثائر وهى تسمع الصوت الآمر ، واستضاءت بصيرتها فجأة وأدركت . أدركت إدراك اليقين والنور أن اليوم نفسه أقبل ، وأن الساعة المرصودة الموعودة قد دنت . فلم تتمهل . لم تتلفت . لم تشأ أن تلقى حتى على ابنها الأصغر العزيز نظرة ، وتحفزت ومشت . مشت مدفوعة بقوة لا تقاوم ، ودخلت مخدعها ، وفتحت باب شرفته ، وارتمت على مقعد فى الشرفة ، وظلت جالسة وسط العاصفة تشخص إلى ما وراء الأفق الأغبر الهادر حيث يطل عليها وجه رءوف .

وانقضت لحظات . وافتقد الأولاد أمهم . ونادى عليها زوجها والأصدقاء . ولما لم يجبهم غير الصدى ، أسرعوا وطافوا بغرف البيت . ثم دخلوا الشرفة . وما إن دخلوا حتى ذهلوا وروعوا ، إذ أبصروا الست نعيمة مرتمية على المقعد ، مفتوحة العينين ، مبتسمة الشفتين ، ولكن جثة هامدة لا حراك لها .

الورق الساحر

كانت « الست محفوظة » بنت المعلم سالم النقاش قد تعذبت وهى فتاة باستبداد زوجة أبيها التى حلت فى بيتهم محل أمها المتوفاة . فاشتدت لهفتها على الزواج ، وطفقت تحلم بشاب ينقذها ويهبها نعمة الحرية فى بيت مستقل .

وكانت محفوظة فتاة ذكية وجميلة ومطيعة ، تبذل غاية جهدها فى إرضاء زوجة أبيها بانكبابها المتواصل على أعمالها المنزلية. فتعمل النهار كله فى صبر ، وتغض عن الإهانة في سماحة ، وتحتمل الاستبداد فى جلد ، معللة نفسها بالخلاص يوماً ، ملتمسة عزاء وسلوى فى هوايتها المحببة وهى « الكتشينة » ، تفزع إليها فى المساء بعد العمل ، وتحملها فى صدرها كرقية ، وتذهب بها إلى الفتيات جاراتها حيث تلاعبهن « البصرة » أو « الكونكان » . . .

وكان كلما تقدم إليها شاب تمتعض زوجة أبيها ، ويهلع قلبها إذ تفكر أن عبء البيت سيقع على عاتق أولادها هى . فتسرع وتناصب الشاب العداء ، وتلصق به شتى العيوب ، وتوغر صدر زوجها عليه . فييأس الشاب وينصرف ساخطاً . فتنزوى محفوظة فى ركن من البيت وتبكى . ثم يعز عليها وهى شابة أن تحزن وتبكى ، فتخف إلى صديقاتها تلاعبهن الكتشينة وتفرج بهذا اللعب عن نفسها .

وهكذا ابتعد الشبان عنها وأهملتها الخاطبات . فلم يتردد الكهل

الأرمل المستمتع السكير « الأسطى حسنين النجار » أحد زملاء والدها ، وشرع يتقرب إليها فى جرأة ، ويغازلها فى الشارع وهى تبتاع لوازم البيت ، ويعرب لها فى حرارة عن حبه ، مقسماً بأنه قد ادخر من أجلها المهر سبعين جنيهاً كاملة ، وأنه متأهب فى أى وقت لقراءة الفاتحة وعقد الزواج .

ولم تكن محفوظة قد سمعت بأن شاباً فى حيهم قد دفع مثل هذا المهر فى فتاة . فاضطربت وحارت ، وزهاها أن تكون مميزة ومحبوبة . فأقبلت على الأسطى حسنين تنعم النظر فيه ، وتحاول أن تتصور الحياة معه وهو زوجها . بيد أن الرجل كان ضخم الرأس ، أفطس الأنف ، مهزول البدن . فروعها منه رأسه الضخم يترنح فوق بدنه المهزول ، ونظراته المتقدة تندلع من عينيه الجاحظتين . فنفرت منه وأعرضت عنه . ولكنه لم يغضب ولم يتراجع بل تسلل إلى بيتها ، وأمعن فى التودد إلى زوجة أبيها، وجعل يستميلها بشتى الهدايا . ثم أسعده الحظ فانتهز فرصة ضائقة مالية نزلت بالمعلم سالم النقاش ، فأقرضه مبلغاً من المال ؛ واتأد بعد ذلك أياماً ، ثم لوح له بالمهر الكبير وطلب ابنته . فانبهر المعلم سالم ، وأحرجت امرأته . ولكنها لم تستطع أن تقابل إحسان الكهل بالإساءة وقد أخذت فى شبكة هداياه وطمعت فى المزيد منها . فامتثلت لرغبة زوجها ، وتحالف كلاهما على محفوظة حتى أطاعت الفتاة ورضخت ، وتم زواجها بالأسطى حسنين النجار .

واندفع الكهل فى العام الأول من زواجه، مفتونًا بشباب امرأته ، يرعاها ويدللها ، ويتهافت فى شغف عليها، ويجيبها إلى كل ما تطلب ، ترضية لها وتعويضًا عن كهولته العاجزة المتهدمة . أما محفوظة فكانت رغم هذا تنفر منه، وتخفى نفورها جهدها، وتحاول كعادتها أن تسرى عن نفسها بهوايتها المحببة . فتهرع إلى جاراتها ، وتلاعبهن الكتشينة ، وتنساق بين ضحك الجارات ومرحهن إلى لعبة جديدة ، لعبة طريفة لم تكن قد خطرت لها قط فى بال ، لعبة أثارها فى نفسها ميل كامن إلى الزهو والمباهاة ، ورغبة نسوية مشبوبة فى التفوق على أترابها. وهذه اللعبة هى أن تكشف لصديقاتها عن المجهول وتقرأ طوالعهن من خلال ما يتنبأ به الورق .

واستهوتها هذه اللعبة وميزتها . فكانت تنثر الورق وهى تضحك ، ثم تتفرس فيه وهى تصطنع الجد والاهتمام ، ثم تستلهمه تنبؤات خرافية وطوالع خارقة ، وجاراتها منحنيات عليها ، يحطن بها ملهوفات ، ويصغين إليها صامتات مأخوذات ، وعيونهن الذاهلة تتسع فجأة وتبرق .

وشاء القدر الساخر أو المصادفة العجيبة أن تتحقق إحدى تنبؤات العرافة العابثة اللاهية ، وأن ترتد جارة لها إلى عصمة زوج كانت قد يئست من عودتها إليه . فطربت الست محفوظة وانتشت ، وأكبرت الجارات قدرتها الخارقة على كشف المجهول ، فتقاطرن عليها يسألنها فتح بختهن . فكانت تدهش هى وتسخر فى قرارة نفسها من بلاهتهن ثم

تطيب مع ذلك خاطرهن وتفتح لهن الورق . فينصرفن معجبات بها ، لاهجات بذكرها ، موقنات بأنها تقرأ الغيب فعلاً ، وتتنبأ بكل دقيق وخطير من حوادث المستقبل .

ولبثت الست محفوظة على هذه الحال يقربها زوجها الكهل فتنفر منه ، وتقبل عليها جاراتها فتبتهج بهن وهى تكشف لهن عن طوالعهن ، حتى انطوت فجأة وتباعدت وانكمشت ، وتبدلت حياتها تماماً .

تبدل مظهرها ، وزايلتها بهجتها ، وأفلت منها ذلك الجزء اليسير من الرفاهة والأمن الذى كانت تنعم به مع ذلك راضية وقانعة .

تغير زوجها الأسطى حسنين النجار . أسرف الكهل الظامئ فى التهافت على امرأته الشابة ، واستنفد قواه فى العام « العسلى » الأول من زواجه . فغلظ طبعه ، وجف خلقه ، وساءت معاملته . وبات وهو محنق ومغيظ وثائر على عجزه ، يمعن كل ليلة فى تعاطى الخمر ، يدفن فيها ذله وهمه وأساه . ثم يدخل البيت وهو سكران يتطوح . فتشتد زوجته فى زجره وتقريعه . فتهوله منها جرأتها ، فينهال عليها سباً وضرباً . فتصرخ المرأة وتولول ، فيجتمع عليهما الجيران . فتشهدهم الست محفوظة على مسلك زوجها وقسوته واستبداده ، ثم تغرق فى البكاء والشكوى نادبة حظها وهى فتاة وحظها الآن وهى زوجة .

وما كاد ينتصف العام الثانى حتى كانت الخمر قد أنهكت بدن الأسطى حسنين وأصابته بشتى العلل . فظل يكابر ويقاوم الأسابيع الطوال . ولكنه ازداد عجزاً وحنقاً وضراوة ، ثم رزح بغتة تحت وطأة

المرض والأسى ، فمات ذات ليلة وهو عائد إلى بيته قبيل الفجر . .

* * *

وتنفست الست محفوظة الصعداء، وأثلج صدرها أنها قد تخلصت من ذلك الكهل المهدم الغليظ السكير، وإن كان قد روعها أنها ألفت نفسها وحيدة ولا عائل لها. بيد أنها كانت قد ادخرت بعض المال ، فأبت أن تلجأ إلى والدها وتستهدف من جديد لعداء زوجته . فآثرت أن تبقى فى بيتها ، وتفكر فى وسيلة تعاونها على الحياة. ولكن ماذا تفعل، وأية مهنة يمكن لمثلها أن تحترف. إنها لا تحسن تفصيل ثوب أو حياكته ، وليس فى مقدورها أن تمارس فى بيوت الآخرين تلك الأعمال المنزلية الشاقة الوضيعة التى كانت تمارسها فى بيت والدها . لقد ألفت اليوم أن تكون فى بيتها سيدة، سيدة تنعم بحريتها واستقلالها . وإذن فماذا تفعل ، وأى السبل تسلك ، وكيف يمكنها أن تعيش ؟

وطافت بها شتى الخواطر والرؤى ، فتلفتت حولها ذات مساء قلقة وحائرة . فواجهت فى المرآة صورتها . فانجذبت إليها ، وأقبلت عليها ، وحدقت فيها كأنما هى تسائلها ، وإذا بعينها المتأملة تأخذ فجأة ورق الكتشينة وقد تبعثر فوق منضدة ، والتمعت ألوانه الزاهية فى صقال المرآة . فارتعشت الست محفوظة ، وأشرق ذهنها . أبرق فيه الخاطر الذى كان يراودها فى غفلة عن وعيها . فلم تتمهل واندفعت لتوها إلى الأوراق المتناثرة ، وشرعت تجمعها فى عناية وحرص وقد استقر فى نفسها بعد أن أفلحت فى تغفل جاراتها أن تضحك أيضًا على الناس ، وتستغل

سذاجتهم ، وتقبل على فتح البخت لا لمجرد العبث واللهو كما كانت تفعل بل لقاء أجر محدد تفرضه على من شاء أن تقرأ له فى الكتشينة طالعه . . .

* * *

وها هى ذى الست محفوظة فى مسكنها المتواضع الكائن فى زقاق مظلم من حى باب الشعرية ، تفتح البخت لسيدة جالسة تجاهها ، بينما قبعت سيدات أخريات فى ركن من الحجرة تنتظر كل منهن دورها فى تململ ونفاد صبر .

وكانت الست محفوظة متربعة على كنبة ، تنسدل على رأسها وكتفيها طرحة كبيرة سوداء ، تبدو من تحتها حافة منديل أبيض ناصع عصبت به رأسها . كانت جميلة وساكنة ومطوقة بشبه هالة من سحر . وكانت عيناها عسليتين واسعتين ، وخداها ممتلئين ناضرين ، وأنفها مستقيما ، وفمها دقيقا ، ويدها بضة ورخصة تقلب الورق فى تؤدة حالمة وتنظر فيه نظر الخبير الواثق . ثم تقطب جبينها فجأة ، وتتلع جيدها الممشوق فتلمع عندئذ عيناها العسليتان ، وترف أهدابها الطويلة ، وينفتح فمها الدقيق ويكشف عن الطالع المحجب المنشود .

والحق أنها كانت قد اشتهرت فى الحى كله وفى الأحياء المجاورة بميزتين كبيرتين : جمالها الناعس المتحفظ المهيب ، وتنبؤاتها الصادقة المثيرة المدهشة . . .

وكان جمالها وشهرتها يطمعان فيها رجال الحى من صغار التجار

ومهرة الصناع . فكانوا يتصلون بجاراتها ، ويسلطون عليها الخاطبات ، ويبعثون إليها بأمهاتهم وأخواتهم عساها أن ترضى بواحد منهم يبذل من أجلها كل مرتخص وغال . ولكنها وقد غدت معتزة بعملها وربحها ، أبت إلا أن تظل عاكفة على مهنتها ، ولا تتزوج أبداً بكهل ولو كان ميسوراً ، بل بشاب يملأ العين ، قوى وجميل ، تشعر هى فى أعماق نفسها أنها تحبه الحب كله ، وأنه هو الرجل الخليق بها .

كان هذا هو عزمها . أما حلمها ، حلمها الرائع ، حلمها الذى ما برح يستبد بها . ، فقد كان الاقتران بذلك الشاب المخيل على أن يكون من طبقة الأفندية ، من موظفى الحكومة الثابتين المرموقين ، يقدرها قدرها ، ويعلى من مكانتها ، ويستطيع أن ينتقل بها إلى حى العباسية مثلا أو المنيرة ، بحيث يكون فى وسعها أن تندمج فى أوساط الذوات وتتخذ من الهوانم الثريات زبائن لها . . .

والواقع أنها كانت قد أصبحت فى مستوى أطماعها ، ماهرة كل المهارة فى فتح البخت، تعرف كيف تستبطن شخصيات زبائنها ، وتعرف ماذا يجب أن تقول للمرأة العاقر، والفتاة العانس ، والأرملة المتحرقة، والزوجة المخدوعة المذعورة ، كى تقر السكينة فى نفوسهن وتملأ قلوبهن بهجة وأملاً . . .

على أنها كانت تستقبل الرجال أيضًا ، ولا تتهيبهم ، بل تغرر بهم، وتخدع أطول وأغزر شنب فيهم ، كما كانت تخدع حتى الذكيات الواعيات من النساء .

كانت تخدع ، وتجد لذة كبيرة فى مهنتها الخداعة ، وتستغرب كيف يصدقها الناس ، وتعجب لغبائهم وسلامة نواياهم ، وتدهش كلما أبصرت نفسها تربح مالا وتحرز شهرة بأيسر مجهود .

ومع هذا كله فهى لم تكن سعيدة . كان حلمها الرائع يلازمها . كان حلم الحب والطمع يؤرق لياليها . كان يفعم خيالها بصور عذبة شائقة تمثل لها الشباب الزاهر ، والعشق الغامر ، والأمومة الغالية ، والنجاح المؤمل المكفول . فيضنيها هذا الحلم ويشقيها ، ويملأ حياتها لهفة ومرارة ولوعة .

وظلت هكذا ردحًا من الزمن ، يداعبها الأمل وتداعبه ، ويفر منها فتلاحقه ، حتى وقعت الواقعة ذات يوم وحدث ما لم يكن فى الحسبان .

دخل عليها شاب فى مقتبل العمر ، شاب بديع الحسن ، شاب لم تر له بين الرجال شبيهًا ، وافر الحيوية ، أنيق الهندام ، ينم مظهره عن رفعة شأنه وعلو مكانته ، وطلب إليها وهو يمنحها بمبلغ كبير من المال أن تقرأ فى الورق السحرى طالعه .

وما إن تفرست فيه الست محفوظة حتى ارتجفت وتاه صوابها . كان هو ضالتها . كان هو أمير أحلامها . فتأملته أيضًا وروعت واختبلت ومسها الحب ، وأصابها منه دوار . . .

وطوح بها الدوار ، ولفها فى شبه دوامة ، ثم فصلها بغتة عن مهنتها ، وواجهها بالعاطفة التى استحوذت عليها . فلم تعد تشعر بغير هذه العاطفة

جياشة فى صدرها . فشرعت تقرأ للشاب طالعه وهى تقرأ فى نفسها هى ، وتهدف إلى مرادها هى ، وترمز إلى غايتها هى، فى ضوء آمالها الواسعة وحبها الطارئ العظيم .

قالت له إن هناك امرأة تحبه ، ثم مثلت ذاتها وجمالها ومحاسنها ومختلف المشاعر التى يضطرم بها قلبها ووجدانها. وطفقت تؤكد للشاب وهى تقسم أغلظ الأيمان أن هذه المرأة التى تصفها له هى « لقطة » ، وهى ضالته المنشودة التى لا يمكن إلا أن يحبها مكرهـًا ويتزوجها . . . واستنار وجه الشاب، وهز رأسه منشرح الصدر مغتبطـًا، ولم يستطع من فرط فرحه إلا أن يطل برأسه على الكتشينة ، وينحنى على المنجمة كأنما هو يريد أن يقبلها . فخيل إلى الست محفوظة أنه قد فهم . ولكنه نهض مسرعـًا ، وابتسم لها واعداً إياها بالعودة . ثم مد يده وصافحها فى حرارة . فأجفلت المرأة واضطربت، واستبقت يده فى يدها لحظة ، وهمت بأن تصارحه . ولكن الخوف احتواها ، والخجل استبد بها ، والحب تمكن منها وعقل لسانها . فتركت الشاب ينصرف ولم تجسر على النطق بكلمة .

ولم يكد يختفى حتى اشتعل قلب الست محفوظة وانطلقت من صدرها زفرة حانقة . هالها أن قوة غاشمة أخرستها . فأخذت تعض شفتيها وتردد : « لماذا . . . لماذا لم أتكلم ؟ . . . » . ثم أطلقت العنان لخيالها وجعلت تفكر : أيمكن أن يكون قد تنبه ؟ . . . أيمكن أن يكون قد فهم وانجذب ؟ . . . أيمكن حقـًا أن يعود ؟ . . . حبذا لو كان

فى مقدورها أن تعرف الآن أين هو ، إذن لسعت إليه ، وتهالكت عليه ، وبذلت المستحيل كى تجذبه وتغريه وتخضعه . . .

واحتواها الحب مقرونًا بالأمل ، وزادتها الأيام الخاوية المتعاقبة تشبثًا بحلمها ، وتخبطًا فى الحيرة والقلق ومتاهة اللهفة والصبر والانتظار .

وفجأة وعلى دهش منها ، أحست فى نفسها شيئًا جديداً ، شيئًا غريبًا ، شيئًا لم تكن قد تصورته أو توقعته أبداً . . . أحست أنها كغيرها ، فى حاجة إلى إنسان ، إلى منقذ ؛ إلى من ينير لها الطريق ، بل أحست وهى مذهولة أنها أصبحت كزبائنها سواء بسواء . . .

أمضها الحب ولذعتها ناره وتحكم فيها طيف الشاب . فأرادت أن تعرف مصيرها معه . فتحولت إلى المستقبل ، وتطلعت إلى الغيب ، وتمنت لو أتيح لها أن تميط اللثام عن حظها ، وتكتنه كالآخرين سر المجهول . . .

وبرغم يقينها أنها دجالة ، وأن ورقها زائف وخداع وأن جميع أشباهها دجالون ، تمكنت منها فكرة ثابتة ، وأبت إلا أن تعتقد أن غيرها من العرافين يمكن أن يكون صادقًا. فلم تتردد لحظة واستجمعت قواها وذهبت . . . ذهبت إلى أبرع المشايخ ، وأحذق المنجمين ، وأشهر قراء الطوالع وضاربى الرمل . ولكن « الشيخة نور » هى وحدها التى فهمتها ، وهى التى أسعفتها ، وهى التى أقرت فى نفسها الطمأنينة والثقة والأمل .

قالت لها إنها تحب ، وإن حبيبها لا بد عائد إليها ، عائد إليها

فى ظرف شهر واحد، ليخطبها ويمهرها مهراً غالياً ويقترن بها .

فصدقت الست محفوظة ، وطارت نفسها شعاعاً ، ولم تعد تسعها الدنيا . . .

وانتظرت أيضاً وصبرت ، وأشرق وجهها ، وازدهر بدنها ، وتهيأ كل حسن فيها لاستقبال زوجها الجميل الحبيب . . .

وفى ذات صباح ، وبينما هى جالسة تفكر وقد عيل صبرها وران على عينيها الأسى ، سمعت طرقاً على الباب . فخفت إلى الخارج مهرولة . ولكنها ما إن فتحت حتى شهقت وتراجعت وجمدت فى مكانها .

أبصرت الشاب . . . الشاب نفسه . . . الشاب الأنيق الجميل . . . حبيبها وزوجها المرتقب ومعقد آمالها ، يدخل متأبطاً ذراع امرأة باهرة الحسن ، ساحرة الرواء . فحملقت فيهما مذهولة . فلم يتمهل الشاب ، وأخذ يصيح ويردد أن هذه المرأة هى التى كان يحبها ، وهى التى استشف طالعه من أجلها ، وهى التى وصفتها له الست محفوظة ، وهى التى عقد عليها بالأمس وأصبحت اليوم زوجته . . .

وانثنى إلى المنجمة الشهيرة يشدو بقدرتها ، ويطرى علمها ، ويعترف بصدق نبوءتها ، ويقدم لها « الحلاوة » ورقة مالية بمائة قرش !!!

عندئذ تمزق قلب الست محفوظة . تداعت على الكنبة ، وغشى عينيها البائستين ظلام . خيل إليها أنها قد تردت فى وهدة شقاء سحيق . تدافعت أنفاسها فى لغط مبهم أجش . ولكنها ، والحنق ينهشها والخيبة

المرة تحرق صدرها ، لم يسعها إلا أن تتمالك نفسها ، وتكبح عواطفها ، وتشكر الشاب ، وتصرف العروسين السعيدين قبل أن تخور قواها وترزح تحت وطأة اللوعة والذل والهوان .

ولما أوصدت خلف العروسين بابها ، وعادت إلى مجلسها متطوحة ومتعثرة ، أحست أنها وحيدة ، أنها منبوذة ، أنها تائهة . فهالها الفراغ الأصم وطوقه الغاشم يلتف حول عنقها ويكاد يخنقها . فلم تستطع أن تصدق . لم تستطع أن تقتنع . لم تستطع أن تسلم . فاندفعت لفورها ، واختطفت الكتشينة ، ونثرت ورق اللعب فى إصرار ، وراحت تغالب حظها ، وتفتح بختها ، وتقول وتؤكد وملء نفسها اليقين بأنها لم تكن أبداً دجالة ، وأن ورقها صادق ، وأنها لم تكذب يوماً على أحد :

– سيعود ! . . . سيطلقها ويعود ! . . . لابد سيعود ! . . .

ولبثت تقلب الورق الساحر ، وعينها المؤمنة ملهوفة ، ويدها الرخصة ترتعش . . .

حياة امرأة

« من عنايات إلى زوجها صفوت »

عزيزى صفوت

« أنا لم أشأ أن أهدم حياتك ولكنى أريد أن تعلم علم اليقين أنك أنت الذى هدمتها بنفسك . لا تضطرب مما سأقوله لك . لاتدع الغضب يتمكن منك والسخط يستولى عليك . ولكن هل يمكن لمثلك أن يغضب أو يسخط أو يثور ؟ . . . ذلك هو محور المسألة . أنت رجل لا تحفل بشىء ، ولا تتأثر بشىء ، ولا تقيم وزنـًا لأى شىء . . . كل ما تنشده فى هذه الدنيا هو راحة البال ، واطمئنان النفس ، وفراغ القلب ، والضحك ، والتنكيت والفرفشة . أنت لا تؤمن إلا بنعيم مستمد من الصغائر ، وبسعادة نابعة من كل ما هو مادى ونفعى ورخيص . هكذا أنت وتلك هى صورة نفسك . ولكنى ما بدأت خطابى بالتحدث إليك عن هذه الصورة الظاهرية منك ، إلا لأتحدث عن سر روحك ، وجوهر طبيعتك ، ورذيلة حياتك ، تلك الرذيلة الشائنة البغيضة التى عصفت آخر الأمر بنا ، وقوضت صرح بيتنا ، وألقت بى أنا فى تيار مأساة مروعة كادت تفقدنى سلطانى على نفسى ، وتقضى القضاء المبرم على .

لقد تزوجتنى ياصفوت وأنت تعلم أنى كنت مدرسة ملحوظة المكانة فى أوساط التعليم ، وأنى كنت فتاة رقيقة الحس ، مشبوبة العواطف ،

مولعة بالفكر ، كلفة بالأدب وسائر الفنون . ولقد اخترتني لهذه الخلال نفسها ، أو للمفاخرة بها ، لا أدرى . ولكنك على كل حال قدرت فضائلى وأقبلت علىّ إقبال رجل معجب ذاهل مفتون ، يتمنى أن يشاطرنى عواطفى ويقاسمنى ميولى ونزعاتى ، ويبادلنى الحياةالمعنوية التى كنت أنزع إليها والتى كانت هى غاية فكرى وقبلة خيالى .

هكذا رأيتك فى مبدأ الأمر ، وهكذا تصورتك . اعتقدت أنك مخلص فى إعجابك ، صريح فى إطرائك ، صادق فى عزمك على أن تعيش معى وفق ميولى وعلى نفس المستوى المعنوى الذى كنت تعلم أنى أحبه وأوثره وأنشد العيش فيه .

والحق الذى يجب أن أعترف به هو أنك فى العام الأول من زواجنا حاولت أن تشعر . حاولت أن تفهم . حاولت أن تتغير . أردت أن تسمو بنفسك ولو قليلاً . أردت أن تهذب من فكرك بالمطالعة ، وتهذب من عاداتك بالملاحظة ، وتهذب من أنانية أهوائك وطباعك بالرقة والدماثة ورياضة النفس أيضا على التضحية . ولكنك فى الواقع كنت تمثل . كنت تتكلف وتتصنع . كنت تقاوم ذاتك ، وتكافح طبعك ، وتستر حقيقة أخلاقك ، وتود فى أعماق نفسك أن تمزق ذلك القناع الذى أسدلته بيدك على وجهك .

وشيئًا فشيئًا ، وعلى مر الزمن ، مزقت القناع بالفعل ، ثم أطلقت لنفسك عنانها ، وأرسلتها على سجيتها ، وبرزت فجأة رجلا قاسيًا فظًّا

غليظاً لا يمت بأية صلة إلى ذلك الرجل المهذب الممتاز الرقيق الذى ارتضيته أنا زوجاً لى .

تبدل كل شيء فيك بغتة . عدت إلى طبيعتك . طبيعة الإنسان الفطرى البدائى المتحلل من كل ضابط . أيقظت غرائزك من سباتها : ثم ارتميت فى غمرتها ، أسعد ما تكون باتخاذها وسيلة للزهو والاستهتار والتحدى .

وكانت غرائزك هى المجون الوضيع ، والكسل البغيض ، والشراهة المنفرة ، والبخل ، البخل الشائن الحقير المزرى .

كنت ما تكاد تدخل بيتك عائداً من الديوان حتى تطلب الطعام وأنت تجأر . فإذا ما جئتك به ، ارتميت عليه كوحش كاسر ، وطفقت تأكل بيديك وعينيك وقدميك وكل عضو فيك حتى تتخم . وبعد فراغك من تناول الطعام كنت لا تكلف نفسك عناء الجلوس إلىّ ولو لحظة ، بل تسرع وتتناول شيئاً من كربونات الصودا ، ثم تدخل مخدعك ، وتنام . تنام حتى الساعة السادسة ثم تستيقظ .! . تستيقظ ونفس النهم متمكن منك ونفس الشراهة مستولية عليك . فترسل فى طلب جارك وصديقك الوجيه العاطل إحسان بك ، وتجلس فى الشرفة معه ، مرتدياً جلابيتك المخططة التى أبيت أن تستعيض عنها بالبيجامة ، ثم تنادى بأعلى صوتك كل بائع متجول ، و « تفاصله » ، وتساومه ، وتشترى منه الخس أو الملانة ، أو البرتقال ، أو « اليوسف افندى » أو الجزر ، ثم تميل على صاحبك وترشقه بالنكت المكشوفة البذيئة ، ثم تقهقه قهقهة مدوية

والطعام لا يزال يملأ شدقيك ، ثم تلقى بأعواد الخس أو أعواد الملانة أو قشر البرتقال فى الشارع أو على أرض الشرفة النظيفة التى غسلتها أنا ومسحتها بيدى فى الصباح ! . . .

ولقد حاولت . أن أغفر لك شراهتك ، وأعتبرها شبه تسلية تساعدك على تغذية روح المرح المتأصلة فيك . ولكنك كنت تمعن فيها إمعان بعض النسوة البلديات المتلهفات على السمنة بأى ثمن . أجل . كنت مثلهن تماماً . لا تتهافت على الطعام فقط بل تتهالك أيضاً على « المفتأة » والحلبة و«الكتيرة» وتأبى إلا أن تسمن وتترهل وتستكرش وتصبح كباشوات العهد القديم ، تتباطأ فى حركتك ، وتتئد فى إشارتك ، وتتهادى فى مشيتك ، وتتخطر وتتعثر تعثر الوجاهة والدلال .

ولقد كان يثيرنى منك فوق ما تقدم ، ولعك الوحشى بأكل اللحوم ، ومعرفتك الراسخة بأنواعها ، ودقتك العجيبة فى اختيارها ، واتجاهك فى معظم أمسيات الشتاء إلى قتل وقتك باستحضار ذلك القرطاس الكبير المملوء بالفحم ، ورص الفحم فى الموقد ، وإشعال النار فيه ، وخنق أهل البيت بدخانه ، كى تشوى عليه شرائح اللحم ثم تلتهمها التهاماً وهى ساخنة طرية تنضح بالدهن .

تلك كانت هوايتك المفضلة التى طالما زجرتك عليها ، وحاولت أن أحذرك منها ، حرصاً على صحتك ولكن دون جدوى .

بيد أن شراهتك كانت لا تخيفنى ، وميلك إلى المجون والكسل لا

يزعجنى ، ونزعتك إلى الاستهتار وعدم الاكتراث لا تذهب بهدوء أعصابى .

كل هذه الأهواء كانت تبعث فى نفسى على الرغم منى شعوراً بالتقزز فقط ، تخالطه الحسرة واللوعة والندم . أما الرذيلة التى كانت حقاً تثيرنى ، وتجثم على صدرى ، وتملأ قلبى بالكراهية والخوف والحقد ، فهى بخلك الغريب ، بخلك الخارق ، بخلك الذكى اللئيم الخبيث ، الذى جعل من ذهنك آلة حاسبة عجيبة ، آلة تكيل بكيلين ، وتنزع نزعتين ، فتسخو على نفسها مختارة ، بينما هى ، فى مناورات مدهشة ، تذل الآخرين ، وتحرمهم ، وتقتر عليهم أشد وأبلغ وأبشع تقتير .

هو ذاك . الطعام الشهى لك ، والكساء الأنيق لك ، وتحقيق مختلف الرغبات والنزوات هو دائماً طوع مزاجك . وأنا ، أنا زوجتك ، زوجة صفوت أفندى ، أستغفر الله ، بل زوجة صفوت بك الموظف فى الدرجة الرابعة ، فيجب ألا أكون امرأة ، ويجب ألا أتجمل ، ويجب ألا أفصل فستاناً على « الموضة » أو أشترى زجاجة كولونيا ، أو علبة بودرة ، أو أصبعاً من الروج ، أو علبة من الكريم . . . كل هذه الأشياء كانت فى نظرك مساخر وترهات وكماليات يجب أن أحتقرها أنا وأستغنى عنها ، وأعرف كيف أكون امرأة جميلة أنيقة بدونها . أما طفلتك ، بنتك ، بنتك الوحيدة ، فلا يجوز أن تصرخ ، ولا يجوز أن تبكى ، ولا يجوز أن تمرض ، فتعكر مزاجك ، وتقلق راحتك ، وتجلب إليك الوساوس

والهموم . أما إذا حدث وأصيبت بأى داء فواجبى أنا أيضًا ، أنا وحدى ، أن أعنى بها ، وأن أتجنب جهدى عرضها على طبيب ، وأن أحملها وأطوف بها على المستوصفات الشعبية ، أو المستشفيات المجانية ، أسرق لها العلاج من الفقراء المساكين . . . والويل لى ثم الويل لو حاولت أن أضللك ، وأحتال عليك ، وأغالطك فى الحساب ، وأخفى عنك قرشًا واحداً أنفقه على ابنتى ، أو على زينتى ، أو على بيتى ، إنك حينئذ تفتح عينيك ، وترهف أذنيك ، وتنقلب إلى صراف مجرب حذر يقظ . ثم تبدأ بمحاسبتى على كل قرش ، بل كل مليم وأنت تبتسم ابتسامة فاترة ناعسة ، ملؤها اللؤم والخبث ، والرغبة فى الإحراج والاتهام والإذلال .

هذا البخل الوضيع ، هذا البخل النابع من الأنانية ، والصادر عن غلظة العواطف ، وجفاف المشاعر ، وجشع النفس ، وفراغ القلب والروح ، هذا البخل الذى كان يمكّن لك من التمادى فى الشراهة ، والتمتع بالأناقة ، والإغراق فى الكسل والمجون وعدم الاكتراث ، على حساب امرأتك وبنتك وبيتك ، هذا البخل ولد فيك على مر الأيام ، وأنت لا تدرى ، ولعًا مضاعفًا بالجشع ، وشغفًا جنونيًا بالمال ، وتكالبًا مسعوراً على المصلحة ، وشذوذاً مخيفًا فى الميول والأهواء .

وهذا الشذوذ هو الذى ابتلانى بالكارثة التى أرزح تحتها اليوم ، بل هو الذى احتفر الهوة تحت قدمى ، وزين لى بالرغم من صبرى وطول احتمالى أن أثور ثورة جارفة على حظى وأن أكتب إليك هذه الرسالة ،

بعد أن غادرت بيتك أنا وابنتى ، ولجأت مذعورة مخبولة إلى منزل أبى ! . . . فاسمع الآن . . . اسمع الحقيقة كلها . . . الحقيقة المروعة التى صنعتها أنت . . . وعساك أن تنفعل وتضطرب وتراجع نفسك قبل فوات الوقت .

لقد عشنا معاً خمسة أعوام ،ولكننا لم نعش فى بيتنا بمفردنا . كان معنا شقيقك « سامح » منذ أول يوم تزوجنا فيه . لم أشأ فى مبدأ الأمر أن أعيش فى بيت يلازمنى فيه رجل غريب ، وكدت أرفض هذا الزواج . ولكننى بعد أن رأيت سامح ، وتعرفت إليه ، وقص على قصته ، وعلمت أنه كان متزوجاً منذ أكثر من عشر سنوات بامرأة أحبها إلى حد العبادة ثم طلقها لسوء سلوكها ، وآلى على نفسه أن يعيش عزباً وأن ينصرف عن النساء ولا يقدم على الزواج مرة ثانية ، بعد أن علمت كل هذا ولمست فى شخصية سامح حسرة عميقة على امرأته ، وحنيناً خفياً إلى الأيام والأعوام التى أمضاها معها ، تأثرت له ، واطمأنت نفسى إليه ، ولا سيما أنه كان رجلا دمث الطبع ، لين الجانب ، رقيقاً مهذباً ، يعرف كيف يحترم نفسه كما يعرف كيف يحترم الآخرين .

وهكذا رضيت بالحياة معكما تحت سقف واحد . رضيت وأنا متنبهة متيقظة ، أرقب كل حركة تصدر عنى ، وكل كلمة أو إشارة تبدر منى ، وأحاول ما استطعت أن أكون مع سامح بسيطة فى ظرف ، متحفظة فى كياسة ، رقيقة فى عزة وأدب واحتشام .

وكان سامح يحترمنى ويقدرنى ، ويعاملنى معاملة الأخت ، متجنباً

كل مباسطة معى ، وكل خلوة تجمعه بى ، وكل حديث خاص يرفع الكلفة بينه وبينى . وكنت أنا مستريحة إلى هذا الضرب من الحياة ، أغبط نفسى على ما حالفنى من هدوء وتوفيق ، ولا أخطر على بالى لحظة واحدة أن أزداد تقرباً من سامح أو أقتحم شخصيته ، أو أجاوز فى معاملته حد الود الأخوى الصريح .

ولقد أحس هو منى هذا التحفظ ، فازداد احتراماً لى ، وتشبثاً بالجمود المؤدب المتباعد الذى كان قد فرضه على كل تصرفاته معى .

ولبثنا على هذه الحال طوال تلك السنوات الخمس . ثم تغير فجأة كل شىء . . . كنت أنا مثال التحفظ وكان سامح مثال الأدب بل مثال الجمود . ولكن هذا الجمود الواقى ، هذا الجمود العاقل المتزن لم يعجبك أنت . . . أنت زوجى . . . فشرعت تتبرم وتتململ . فاستغربت أنا تحولك ، ولم أدرك علة استيائك ، ولم أستطع أن أتبين حقيقة نواياك .

وفى ذات يوم ، فى ذات يوم تذكره ولا شك تماماً ، دعوتنى إلى مخدعنا ، ثم أوصدت بابه ، ثم انحنيت علىّ فجأة ، وقلت لى ولمعة البخل تومض فى وجهك ، ولهفة الجشع وحب المال تتقد فى عينيك ، قلت لى إن أخاك سامح موظف ممتاز ، وإنه يتقاضى اليوم من الشركة التى يعمل بها مرتباً كبيراً ، وإنه لا يعول زوجة ولا أولاداً ، وإنه قد ادخر فى العشر سنوات الأخيرة التى أمضاها عزباً مبلغاً يربى على الثلاثة آلاف جنيه ، فتطلعت إليك أنا ولم أفهم . . . لم أتبين . . .

فزجرتنى وصحت بى وعيناك تبرقان ، أن واجب الحكمة والعقل يقضى علينا بأن نربح سامح لأنفسنا ، وندمجه فى حياتنا جهدنا ، ونرفه عليه قدر استطاعتنا ، كى يخرج من انكماشه وجموده ، فلا يحس مرارة الوحدة ، ولا يشعر بالحنين إلى الحياة العائلية ، ولا يفكر برغم تعلقه بالعزوبة ، فى الإقدام يوماً على زواج جديد . وهكذا يبقى جهاده لنا ، وخيره لنا ، وماله لنا ولأولادنا . . .

هذا ما قلته لى أنت بالحرف الواحد ، ثم ضممتنى إلى صدرك ، وهمست فى أذنى أن سامح بدأ يتردد على أسرة صديقنا المحامى الأستاذ صلاح ، وأنه يعجب بابنته الجميلة « لطفية » وأنهم قد فاتحوه بشأن الزواج منها ، وأنه حائر محجم ، يشعر بميل إلى الفتاة ، ولكنه يتردد فى التضحية بحريته وتكبيل نفسه بقيد أصبح لا يألفه . . . فتفرست أنا فيك دهشة وسألت مزيداً من الإفصاح . فقلت لى بلهجة آمرة جافية ، إنى يجب أن أتقرب جهدى إلى سامح ، وأن أحاسنه وأسايره ، وأجامله وأتملقه ، وأجتذبه وأستميله ، وأبذل قصاراى فى التغلب على تحفظه وجموده ، بحيث يركن لنا ، ويطمئن إلينا ، ويحس أنه واحد منا ، فلا تتمكن منه الوحشة والجهامة ، ولا تدفعه مرارة الوحدة إلى التفكير يوماً فى الزواج بلطفية أو بغيرها .

وكنت تتكلم ، وبصرك يلمع ، وصوتك يتلهف ، وأنفاسك تغلى ، وخيالك يتصور أن مال أخيك أصبح فى النهاية لك وحدك . وكنت أنا

أنظر إليك ، وأتأملك ، وأعدك بأن أذعن لأمرك ، وملء نفسى الشعور بالكبر والأنفة والتقزز والضجر .

أجل . لم أكترث لتدبيرك . لم أعلق عليه أهمية كبيرة . ولكنى مع هذا نفذته لأرضيك . أقبلت على سامح بوجه أوفر بشاشة وأكثر استجابة وأقل تحفظاً . بيد أنى لم أستطع مغالبة طبعى والتحلل دفعة واحدة من مختلف ضوابط العرف والعادة التى كانت تسيطر على تصرفاتى ، فاستأت أنت وتذمرت ، وانتهرتنى فى عنف ، ثم رميتنى بضيق الذهن ، وقصر النظر ، وقلة الحيلة ، فكنت أنت ، أنت الذى حفزتنى وشجعتنى . . .

نعم شجعتنى . فمضيت أنا طوعاً لأمرك أستدرج سامح وأحاسنه ، وأروضه وأدلله ، وأترضاه وأجتذبه . فبهت الرجل لتحولى ، وانكمش وتراجع وازداد جموداً ، بل ازداد انطواء وتباعداً وتجهماً . فأحسست أنا ، وأحسست لأول مرة فى حياتى بغريزة الأنثى تجيش وتصطخب فى صدرى . كبر على أن يتحدانى رجل ، ويروغ منى ، ويثبت أمامى ، ويستعصى على . فلم ألجأ إلى التلطف والتودد فقط كما نصحتنى ، بل وجدتنى ألجأ ، بالرغم منى ، إلى الدهاء .

فطفقت أقبل تارة على سامح ثم أعرض عنه ، أمنيه بصداقتى ، ثم أنقلب عليه ، أرضى عنه فترة ، ثم أتبرم به وأدعه فريسة الحيرة والقلق والتخبط والذهول .

هذا الجو المضطرب المكفهر ، المتأرجح بين مد وجزر ، أحدث أعمق الأثر فى نفس سامح . فخشى أن يغضبنى ، وخشى أن يثيرنى ،

وخشى إن هو أسرف فى جموده أن أسرف أنا أيضًا فى إعراضى ، فتستغرب أنت أمرنا ، وترتاب فينا ، وتتشكك فى براءة ونزاهة صداقتنا . فلم يستطع سامح بعد جهد إلا أن يلين لى مكرهًا ، ويقبل على متردداً ، ويبادلنى فى الوقت بعد الآخر تبسطًا بتبسط ، وودًّا بود .

وكان تعسًا ومحرومًا لم يألف متعة التجاوب مع امرأة منذ سنين . وظل فترة طويلة يعاند ويكابر ، ويتمنع ويتحفظ ، تدفعه الرغبة ويمنعه الحجل ؛ حتى استمرأ فى النهاية حلاوة الألفة ، وعذوبة التقلب فى جو المرأة ، فطأطأ الرأس صاغراً ، ولان تمامًا وأذعن لى وخضع .

وكنت أنت سعيداً بهذا التبدل الفجائى الذى أردته وأغريتنى به .

كنت من فرط ارتياحك وابتهاجك تمعن فى هوايتك المفضلة ، فتقيم سهرات شواء صاخبة ، وتلتهم شرائح اللحم وأنت تنثر النكت الجريئة البذيئة ، وتضحك وتغنى وتكاد ترقص . . . لم أرك أبداً سعيداً كما رأيتك فى تلك الأيام . كنت ما تفتأ تقبلنى ، وتهنئنى ، وتهتف فى أذنى أنى فى الحق امرأة وفى الحق أنثى ! . . .

وشرعنا نعيش معًا أنا وأنت وسامح كأسرة متفاهمة متآلفة .

بدأنا نسهر معًا ، ونلعب الورق معًا ، ونتبرم بزيارة الغريب ونؤثر أن نبقى فى البيت وحدنا .

وإذ ذاك ، وفى هدأة ليالينا الحلوة الناعمة ، بدأت أنا أهتم اهتمامًا جديداً بسامح وأتأمله وأتفرس فيه .

كان رجلا شامخ الرأس فى عزة ، وئيد الحركة فى هيبة ، ذا عينين

ساهمتين تفيضان عذوبة ورقة ، ووجنتين تضطرمان نضرة وفتوة ، وشفتين دقيقتين ترتسم عليهما ابتسامة حالمة متحسرة .

هذا المزيج من الأنفة والسماحة ، من الرجولة والرقة ، سكن هواجسى وضاعف اطمئنانى ، وحبب إلىّ المضى فى هذه الحياة الجديدة التى شعرت أنا أيضًا أنى أحوج ما أكون إليها للترفيه عن نفسى .

ثم بدأنا نخرج إلى النور ونستجلى معًا طلعة الدنيا . كنا نخرج إلى المسارح ودور السينما ، إلى الكازينات وملاهى الليل . وكنت أنت تزعم تارة أنك نسيت حافظة نقودك ، أو تتململ أخرى لأنك فى حاجة إلى « الفكة » أو تصطنع السهوم والشرود والاستغراق فى التفكير كلما كان يقتضيك واجب اللياقة أن تدفع على الأقل نصيبك ونصيب امرأتك . فكان سامح هو الذى يدفع . . . كان يسبقك إلى الدفع حتى لا يحرجك ويصيبك فى عزة نفسك أمام زوجتك . . . ولما كنا نجلس للعشاء فى أحد المطاعم الكبيرة ، كنت أنت تنتهز الفرصة ، وتطلق العنان لبخلك وطمعك وشراهتك . فتطلب لنفسك عشاء كاملا ، وكأسين أو ثلاثًا من الويسكى ، ولونين أو ثلاثة من الحلوى . فإذا ما جاء وقت الحساب ، أشحت بوجهك ، ولذت بالشرود كعادتك ، وانهمكت فى إخراج علبة سجائرك وأنت ترمق أخاك من طرف خفى ، كى تتغفله مرة أخرى وهو يحاسب الجرسون عنك ، وتضن عليه أيضًا حتى بسيجارة . . .

وكنت أنا ألحظ ذلك وأكاد أموت خجلاً وغمًا . ولكنك كنت تستخف بى ولا تقيم وزنًا لحنقى ، بل كنت على النقيض تغمزنى بعينك ،

وتنبهنى بقدمك ، وتحثنى على التغافل و « الصهينة » مثلك . . .

وكان سامح يدفع وينفق إكرامًا لى ، وخجلاً منى ، وابتهاجًا بوجودى ، وتأدية لواجبه كرجل مهذب يخرج فى صحبة امرأة . فكنت أشعر شعوراً مرًّا عميقًا بأنه ينفق من أجلى . وأنك أنت تعرف ذلك يا زوجى ، تعرفه وتريده ، تريد أن تتخذ من امرأتك وسيلة لإشباع غرائزك وأداة لاستغلال أخيك ! . . .

هذا الشعور ، شعورى بإسفافك إلى هذا الحد وهوان شأنى عندك ، هو الذى ذهب بعقلى ، وأفقدنى اتزانى ، وبدد البقية الباقية من تحفظى ، وأثارنى عليك ثورة دفعتنى بالرغم منى إلى محاولة الثأر منك بمضاعفة التقرب إلى سامح . . .

أجل . كنت تسرف أنت فى استغلالى ، فأسرف أنا فى التودد إلى سامح عساك أن تغار وترتدع وتفهم . بيد أنك كنت ممعنا فى بخلك ، سادراً فى طمعك ، غافلا أو متغافلا عن نتائج تصرفك . فضاق صدرى ذرعًا بك ، وضاق صدرى ذرعًا بحياتى المظلمة الوضيعة معك ، فلم أجد بدًّا من أن أنفس عن كربى فى التعلق والتشبث بتلك الصداقة النامية الناضرة التى كانت قد بدأت تتوثق بينى وبين أخيك .

وهكذا حملنى التيار على دهش منى فأخذت بسحر سامح . . . رأيت فيه نقيضك وما كان يجب أن تكون عليه أنت . رأيت فيه ملاذى وملجئى . شعرت أنى فى حاجة إليه .

أحسست أنى أتخلص فى قربه من ربقة غلظتك وعبء ضجرى .

كل ما كنت أتحرق عليه وأتمناه فيك وجدته فيه ، رقة الطبع وأدب النفس وكرم اليد وحنان الروح . فأذهلتني نشوتي ، وأفقدتني سلطاني على عقلي ، وأسلمتني إلى هذا النعيم الذي لم أكن أتوقع أن أخالسه ولو بالوهم طول عمري . . .

وكان جواً مبهماً وغامضاًوعجيباً ، ينقبض ويتكاثف تارة ، وينفرج ويصفو أخرى ، ذلك الجو الذي سبحت فيه أنا وسامح . . . كان سامح لا يتكلم . كان ينظر إليّ فقط . وكنت أرى في نظراته الحيرة والقلق ، والارتباك والتعثر ، والتهافت والتأبي ، والخجل والإغضاء . فكنت أحدق فيه طويلا ، وأرسل إليه على الرغم مني نظرات وابتسامات تثيره وتدعوه . فكان يطرق ويغمغم ، ثم يرتجف ويتخبط ، ثم يقبل عليّ مكرهاً ، ويظل شاخصاً إليّ وفي عينيه رغبة محمومة يوشك أن يخالطها من فرط المجاهدة والكبح ، تلهف مندفع مخبول .

وألهبت أنا فيه هذا التلهف ما شاء لي مكري وخبثي وضجري وانتقامي وفرحي الطارئ بالسعادة النادرة التي غمرتني .

ولكني شعرت فجأة أن هذا التلهف نفسه يجتاحني ، لأني قد بدلت سامح ، ولأنه قد أصبح تحت تأثير إغرائي رجلا لا يكفيه أن ينظر إليّ ويتأملني وينعم بصداقتي . بل يود لو استطاع أن يقتحمني ويغزوني . فانخلع قلبي ، وارتعدت . عرفت لأول مرة شعور الفزع والخوف

والحب . . . ولكنى ما كدت أفزع وأخاف حتى اضطرب هو أيضًا وملكه الذعر . . .

وبتنا كلانا والذعر يطاردنا ، نهمس ولا نتكلم، نلهث ولا نتنفس ، ننساب ولا نمشي ، نتلامح بعيوننا فترة ، ثم نسرع فنغض من أبصارنا جزعًا وهولا ، كأننا قد ارتكبنا الجريمة بالفعل، ولم يعد فى وسعنا إلا أن نرتكبها أيضًا كى نخنق فيها تبكيت ضميرنا ، فنقر السلام فى قلبينا ونستريح . . .

وكان خوفنا من الجريمة يدفعنا إليها ويغرينا بها. فكنا نراها دائمًا أمامنا ، زاحفة إلينا ، مخيمة علينا ، مطوقة أفكارنا ، مندسة فى خيالنا ، تبتسم لنا وتضحك منا ، وتهزأ بخوفنا وجبننا . . .

واستبد بنا الخوف . فاشتغل حبنا ، واضطرمت عواطفنا ، وضقنا بالصبر والألم والحرمان ، وأحسسنا فى لحظة من لحظات وعينا المتيقظ المستهول أن الهاوية المروعة تحتفر شيئًا فشيئًا تحت أقدامنا . . .

فى تلك الليلة، وأظنك تذكرها، تلك الليلة المقمرة الحارة الخانقة وأنا راقدة فى فراشي بجوار ابنتى ، أفكر فيك يا زوجى وأنتظر عودتك من الحفلة التى دعاك إليها رئيسك بمناسبة ترقيته، تولانى قلق عصبي غريب . كنت أعلم أن سامح لم يغادر البيت وأنه الآن فى حجرته بجوارى . فلم أستطع أن أهدأ وأعالج النوم . ساورتنى رعدات متعاقبة كرعدات الحمى . خفقت دمائى خفقًا عنيفًا ضاعف عنفه وجيب قلبى . شعرت أن أعصابى تفلت منى وكأن كيانى كله ينسلخ عنى ، بل كأن هناك

شيء أقوى من إرادتى وعقلى يدفعنى إلى الحركة والنهوض فنهضت ، نهضت ومشيت . . . مشيت دون أن أفكر لماذا نهضت ولماذا أمشى . . . مشيت دون أن أفكر فى ابنتى ، أو أسمع غطيطها أو ألقى عليها نظرة . مشيت بخطى اللص الحذر . لم أسمع غير لهثات أنفاسى وطنين الليل حولى ، وتدافع الدم الذى كان يهدر فى عروقى . . . وتقدمت وإذا بى تجاه حجرة سامح أريد أن أقتحمها وأدخلها . . . وما إن عزمت ودنوت من بابها وهممت بأن أفتحه ، حتى تقهقرت مذعورة وصرخت . . صرخت إذ أبصرت الباب يفتح من تلقاء نفسه ، ويبرز منه سامح ، ويقف أمامى وجهاً لوجه ! . . .

كان هو أيضاً يرتعش . كان فى مثل حالتى . أراد هو الآخر أن يتسلل إلى حجرتى . لم يستطع هو أيضاً إلا أن يلبى ندائى ويسرع إلى . . . ولبثنا واقفين ، يحدق كل منا إلى الآخر ، ويرى كل منا عينى الآخر ، ونظراته ، وقسمات وجهه تملؤها الرغبة العاتية ، ويبرق فى تضاعيفها العزم الأثيم .

وتخاذلت ركبتاى وأوشكت أن أتهاوى . فأسرعت واستندت إلى مصراع الباب وأنا أرتجف .

وكانت أشعة القمر المنصبة من النافذة ، تمتد إلى سامح وتغمر وجهه الذى انسكب عليه ، برغم احتقانه وتصلبه ، فيض من حرارة الابتهال ومرارة التضرع ، وعذوبة الأسى . روعنى وفتننى ، وأشاع فى جسمى وعقلى تهافتاً كتهافت الدوار . . .

وحالف الصمت لهفتى ، ولفنى فى ضبابه الزافر . فتاه فكرى ، وغلى دمى ، وتوترت أعصابى برغم خوفى ، وأحسست أنى أتقدم أيضًا ، وأتأمل سامح ،وأوشك أن أصافح أنفاسه التى كانت تهب كالنار على وجهى . . .

واستشعر هو ضعفى وتخاذلى . فأبرقت عيناه ، وأرسل صيحة مخنوقة ثم فتح ذراعيه وحاول أن يعانقنى . ولكنه ما إن دنا منى ، ما إن لمسنى ، وما إن شعرت أنا بوطأة ذراعيه اللينة القوية تحط فى إرادة حاسمة على كتفى ، حتى جحظت عيناى ، ودبت فى مفاصلى رجفة زلزلت كيانى ، وأجبرت سامح على الترفق بى ، والتراجع عنى لحظة ريثما أتمالك نفسى .

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى كادت تجرفنى وتطوينى وتغيبنى فى لجة لا قرارلها ، اندفق علىّ من موجها الصاخب ضوء ساطع ، رد إلىّ عقلى وأيقظنى .

أدركت فى مثل خطف البرق إدراكًا ثابتًا فى تجبره ، دقيقاً فى توعده ، فظيعاً فى صورته : أنى سأشطر جسدى بين أخوين وأبذل نفسى لشقيقين وأعيش فى بيت واحد بين رجلين ، يفترسنى كل منهما فأصمت ، ويستريب بى من هو صاحب حق علىّ فأكتم وأمكر ، وأخدع وأكذب ، وأنافق وأضلل ، وأتقلب أبداً فى جو عاصف من الإقدام والإحجام ، والحذر والتوجس ، والقلق والرعب ، والتدهور والعذاب . فتصاعدت من أعماق ذاتى شهقة استنكار دفعتها موجة اشمئزاز طاغية ، تمكنت منى ، وأخذت بمخنقى ، وأشاعت الخدر فى أعضائى . فخشيت

إن أنا قاومتها أن أعود فأقع تحت سلطان رغبتي . فلذت بها ، وتركت سيل الاشمئزاز والرعب يحملني ، وانتفضت وصرخت :

— سامح . . .

ثم لوحت بذراعي وقلت :

— يجب أن ترحل ! . . .

فتطلع إليّ الرجل مبهوتًا وجمد . فأردفت وأنا أجاهد كي لا أنظر إليه :

— غداً . . . يجب أن ترحل غداً . . . يجب أن تغادر البيت ! . .

فاختلج اختلاجًا عنيفًا ، وصوب إليّ نظرة مسترحمة ممزقة . ولكني لم أرحمه ولم أرحم نفسي ، بل واجهت عينيه التائهتين ، وقلت في صوت خفيض :

— ويجب أن تتزوج لطفية ! . . .

فامتقع وجهه ، ثم رفت أهدابه رفيفًا متداركًا ، وتلوت شفتاه تغالبان وتحبسان في صدره انفجار عواطفه . ثم تداعى رأسه بغتة ، وتساقطت كتفاه ، وانبعث من هيكله المحطم صوت غائر يقول :

— سأرحل . . .

ومد ذراعيه بالرغم منه ، وحاول أن يلمسني . ولكنه ارتد مذعوراً ودفع أصابعه في شعره كمن يريد أن يستفيق . ثم صعد نفسًا مستطيلا ، ورماني بنظرة أخيرة ، واستدار فجأة ودخل حجرته وأوصد خلفه الباب .

وأحسست أنا كأنما هذا الباب قد أوصد على حياتى . فنازعتنى نفسى أن أغامر وأدفعه . ولكن هذا الباب نفسه ، هذا الباب الذى أوصده سامح فى وجهى ، هو الذى أسعفنى . ومثّل أمامى فى صلابته الراسخة ما يجب أن تكون عليه صلابتى . فالتقطت أنفاسى ، وقفلت راجعة إلى حجرتى ، وأوصدت أنا أيضًا بابها علىّ .

ولم أكد أرى ابنتى راقدة على فراشى ، تغط فى نومها الطاهر الساكن القرير ، حتى أسرعت واستلقيت على الفراش بجوارها ، وعزمت أن أطرد كل شىء وأنسى . ولكنى عندما حاولت أن أنام ، شعرت كأن لوعة ما تزال تشتعل فى قلبى . فارتميت على ابنتى وقبلتها . فاستيقظت الطفلة وقبلتنى ، فضممتها فى عنف إلى صدرى ، وأحسست راحة منقذة تغمرنى . فأغمضت عينى ، وعجبت لنفسى كيف طوانى النوم واستغرقت فيه . . .

وعدت أنت يا صفوت من الحفلة قبيل الفجر ، مكتظًّا بالطعام والشراب ، هاتفًا بكرم رئيسك ، تتحدث فى إعجاب وانبهار عن اللحوم السمينة ، والطيور المحشوة ، والحلوى الفاخرة ، وشتى أنواع المأكولات الشهية التى كانت تزين مائدة الحفلة والتى استمتعت بها دون أن تكلف نفسك قرشًا واحداً . ثم ارتميت على فراشك ونمت كالقتيل . . .

وفى صباح اليوم التالى ، وكان يوم جمعة ، استفقت أنا من نومى الخاطف مبكرة ، وأسرعت فأعددت طعام الإفطار والغداء . وقبل

أن تصحو أنت ويستيقظ سامح ، ارتديت ملابسى ، وأمرت الخادم بأن تحل فى خدمة البيت محلى. ثم أصطحبت ابنتى وخرجت لزيارة شقيقتك إجلال . . .

كنت على أتم اليقين من أن سامح لا بد أن يبر بوعده، ولا بدّ أن يغادر بيتنا فى هذا اليوم. وكان فى وسعى أن أوقظه . كان فى وسعى أن أزوّده منى ولو بنظرة قبل رحيله .ولكنى كنت قد استعدت قوتى وسيطرتى على نفسى . فلم أشأ أن ألتقى بسامح، أو أن أتيح له الفرصة لتوديعى .

ولما عدت إلى البيت عصراً شاهدت ما كنت أتوقعه . . . رأيتك أنت فى حالة هياج عصبى ما رأيتك عليها أبداً من قبل . كنت مهتاجاً هياجاً لا يثير الدهشة قدر ما يبعث على الضحك والرثاء . . . رأيتك تغدو وتروح فى البيت كمعتوه ، تنتظر بفارغ الصبر عودتى ، زائغ العينين ، منتفخ الصدغين تهدر وتزفر غيظاً، وتصدم المقاعد وتركلها ، وتنهر الخادم وتسبها ، وتصرخ وتهذى وكأنك تود أن تحطم كل شىء .

وما إن أبصرتنى حتى تفاقمت ثورتك وانفجر مرجل غضبك. . . على أنها لم تكن ثورة رجل وإنما كانت ثورة طفل حانق بائس مسكين. صحت بى والدمع يكاد يطفر من عينيك، أن سامح قد جمع ملابسه وحزم حقائبه وترك البيت دون سبب. . .تركه إلى غير عودة . . . ثم زايلتك طفولة غيظك وكمدك، وارتدت إليك قسوتك وغلظة طبعك . فأردفت وفى عينيك بريق وحشى ،إن سامح قد صارحك بأنه قد سئم

حياة العزوبة واعتزم أن يتزوج لطفية . . . ثم انقضضت علىّ ، وأمسكت بى ، وصرخت فى وجهى ، وأنت تهزنى هزًّا عنيفًا وتوشك أن تضربنى ، أنى أنا . . . أنا السبب فى رحيل سامح ، وأنى لم أعرف كيف أستميله ، وكيف أجتذبه ، وكيف أغريه ، وكيف أحبب إليه الحياة الدائمة فى بيتنا . . .

ثم مضيت تندب وتولول ، وتذكر ثروة سامح وكرمه وخيره ، وكل تلك النعم التى كان يغدقها بالأمس علينا والتى ستغدق فى الغد على الغريب . . .

وأصابك شبه مس . فتحولت إلىّ ثانية تسألنى كيف أهملت ؟ وكيف تهاونت ؟ وأى ذنب قد ارتكبت فى حق أخيك كى يرحل عنا هكذا فجأة وبدون سبب . . .

وكنت تصرخ وهوس البخل يتلهب فى عينيك ، وشهوة المال والتكالب عليه والحسرة على ضياعه ، تمسخ معالم وجهك وتفجر الزبد من شدقيك . . .

وكنت أنا ، إزاء هذا المشهد المخجل ، ما أزال ثابتة هادئة ، أصطنع الاستغراب والدهشة من كل ما وقع ، وأفكر فى أن أجبهك بالحقيقة لأستريح . ولكنى استهولت أن أضرم فى نفسك باعترافى نار ثورة أعنف وأشد . فاحتفظت بصمتى وهدوئى . فضاعف هذا الهدوء نفسه من هياجك وثورتك وإمعانك فى اتهامى . فكبر على أن تكون أنت

السبب فى ورطتى ثم تحملنى عبء المسئولية كلها وتظلمنى . فتطاولت عليك بالرغم منى . فضل عقلك ، ورميتنى بيمين طلاق واحدة شفعتها بطردى من بيتك . ثم دفعت الباب فى عنف وخرجت . أما أنا فلم أتردد لحظة واحدة ، واصطحبت ابنتى ، واتجهت من فورى إلى منزل أبى . وما كدت أستقر هناك حتى جاش فى صدرى شعور الاستنكار والظلم ، ولم يعد فى وسعى احتمال الكتمان والصمت . كنت قد احتفظت بالصمت حرصاً على بيتى ، أما وقد طردتنى أنت منه ، فقد رأيت أنا أن من واجبى أن أتكلم ، ومن واجبى أن أتهم ، ومن واجبى أن أكشف النقاب عن الصراع الذى نشب فى نفسى ، وعن العذابات المريرة التى كابدتها ، وعن الورطة القاسية التى تخبطت فيها ، لتعلم أنت ، أنت يا من كنت بالأمس زوجى ، أنك أنت الذى حرضتنى وأنت الذى أغريتنى ، وأنت الذى أوشكت ببخلك الدنىء وجشعك المرذول ، أن تلوثنى وتهلكنى .

لهذا حزمت أمرى وكتبت إليك هذه الرسالة .

فأنعم النظر فيها مليًّا لعلك الآن تتأثر ، ولعل ضميرك يبكتك . فتشعر وتقدر وتفهم .

بيد أنك لو فهمت حقًّا موقفى ، وقدرت حقًّا مبلغ عذابى ، وآمنت بصدق كل كلمة كتبتها فى هذه الرسالة ، ولم يداخلك أيسر شك لا فى استقامتى وشرفى ولا فى استقامة وشرف أخيك ، ثم أردت أن تثوب إلى رشدك ، وأن تفكر فى ردى يومًا إلى عصمتك ، فاعلم أنى لن أعود إليك حتى لو قبضت يدك عنى ، وحتى لو أجبرتنى على أن أعول ابنتك

بنفسى . لن أعود إليك إلا إذا أقلعت أولا وقبل كل شىء عن كبرى رذائلك ، أى رذيلة البخل التى نجم عنها اليوم دمار بيتك ، والتى كادت تعصف بى أنا أيضًا وتجرفنى . أما إذا أبيت إلا أن تمعن فى البخل ، وتوغل فى الطمع ، وترتع فى بحبوحة الأنانية والشراهة والغلظة وعدم الاكتراث ، فابق حيث أنت. فلن أعدم أنا بعدك رجلا يفهمنى ويقدرنى ويجدد حياتى ويستطيع أن يحفظ بشهامته ورجولته ، كرامته وكرامتى .

عنايات

* * *

وأدهشت هذه الرسالة صفوت ، وكادت تزعجه إزعاجًا شديداً . ومع ذلك فهو لم يستطع ، من فرط اعتداده بنفسه وثقته فى امرأته وإيمانه بشرفها ، أن يتصور أن تلك الوقائع التى وردت فى الرسالة على النحو الذى رسمته عنايات ، يمكن أن تكون قد أفضت إلى أشياء نابية ومزعجة إلى هذا الحد . . .

كان من عادته حرصًا على هدوئه ، وضنًا براحة باله ، وذوداً عن روح العبث والاستهتار والمرح المتأصلة فيه ، كان من عادته ألا يؤمن بوجود العواطف الكبيرة والانفعالات العميقة ، ولا يصدق أو لا يريد أن يصدق أن تلك العواطف والانفعالات يمكن أن تتطور فى نفس إنسان تطوراً خطيراً يؤدى إلى وقوع كوارث ونكبات .

لهذا سخر من الرسالة ، أصر على اعتبارها قصة محشوة بالمبالغة والخيال ،أرادت بها امرأته التنصل من ذنبها .بيد أنه أحس على الرغم منه، أن تفاصيل الرسالة دقيقة ، وأن لهجتها حارة وصادقة . فأكربته تلك الدقة اللعينة ، وهذا الصدق المزعج . فأبى أن يتأثر بهما خشية إن يؤثرا فى جو حياته الرخى المرح ، كما أبى حرصًا على كرامته وكبريائه أن يفكر فى مناقشة امرأته حول محتويات الرسالة ، أو أن يواجه أخاه ويطلعه عليها . . .

ولم يكن فى الواقع مشغولا بالرسالة ، ولا بالنزاع الذى أقصى عنه امرأته ، ولا بيمين الطلاق التى أفلتت منه . بل إن ما كان حقًّا يشغله، وينغص عليه عيشه ، هو خوفه من ضياع المال ، هو حرصه على الدجاجة التى كانت تبيض له كل يوم ذهبًا .فانطلق يتعقب أخاه ،ويطارده، ويضيق السبل عليه ، عساه أن يقنعه بترك البنسيون الذى نزل فيه ، والعدول عن التزوج بلطفية ، والعودة فوراً إلى البيت . . .

ولكن سامح لم يضعف . لم يسلم . كان يقاوم ويرفض . كان ، وقد تأثر بما حدث وهاله أن تطلق عنايات بسببه ، يمعن فى التشبث بموقفه ، ويأمر شقيقه بالعودة إلى امرأته ، ويثنى عليها ، ويطرى خلالها ، ويحمل على أخلاق صفوت ، ويبرىء عنايات من كل عيب وذنب .

وكما كان يصر سامح على وجوب عودة أخيه إلى زوجته ، كذلك كان يصر هو على استمساكه بحريته ، وعلى حقه فى الحياة واعتزامه أن يقترن وشيكًا بلطفية :

وتحطمت محاولات صفوت وأفانين مكره على صخرة عناد أخيه . يئس من إمكان الفوز بالمال . فملأ الغيظ قلبه ، ونهش الكمد صدره ، وتحولت ثورته إلى امرأته . فأبى أن يذهب إليها ، أو يتصل بها ، أو يرى ابنته الوحيدة التي كان لا يعطف فى العالم على أحد غيرها .

وبدأ يدفن همه فى الأكل ، ويعيش فى البيت وحيداً شريداً تائهاً ، تلفه العزلة ، وتكتنفه الجهامة ، ويسحقه الضيق والضجر والكمد .

وانقضى أسبوع بطوله وهو يتقلب فى هذه الوحشة الخانقة ، هذه الوحشة التى لم يألفها . والتى لا تتفق وعاداته وميوله ، والتى ناءت عليه بغتة كحمل ثقيل أو هم وبيل لم يكن قط فى حسبانه . فحاول أن يفر من تلك الوحشة باللهو والسهر فلم يفلح . وحاول أن يتغلب عليها بفكرة الزواج من امرأة أخرى فلم يستقر أيضاً ولم يهدأ .

كان فكره لا يطاوعه ، وقلبه لا يعاونه ، وإرادته لا تستجيب إليه . كان ضميره يهمس فى أعماق روحه البليدة الكثيفة همساً دائباً متقطعاً خفياً ، أن امرأته صادقة ونزيهة ، وأن الذنب ذنبه هو لا ذنبها وأنه هو المسئول عن كل ما وقع لا هى .

وكما يحدث فى نفوس الضعاف الغلاظ المستمتعين ، العاجزين عن الصبر على الألم ، التواقين إلى الراحة والمرح ، النزاعين إلى الحركة السهلة والحياة اللينة ، لم يستطع صفوت احتمال عزلته وجهامته ووحشته . فتمنى أن يتحول ، وأراد أن يتحول . فلم يعد يجد بأساً فى الاعتقاد أنه بالفعل قد تحول ، وأنه هو المذنب حقاً . ذلك لأن قلبه وجسده وكل ما فيه

كان يصبو إلى التمتع بامرأته ، وبجو الراحة والأمن والائتناس الذى اعتاد أن يحس به منبعثًا منها ، منتشراً فى البيت حول أنوثتها ووجودها . . .

ولم تكد هذه الصورة الحلوة تندس فى خياله وتتمكن منه ، حتى ارتد من فوره إلى طبيعته وتنفس . . . لمعت عيناه ، وأبرقت أساريره ، وعادت الابتسامة العابثة المستهترة فازدهرت فى غبطة وفرح على شفتيه . . .

وفى ذات مساء ، حزم أمره ، ونهض فحلق ذقنه ، ونسق شعره ، وارتدى أجمل أثوابه وتعطر ، ثم خرج .

وقبل أن يستقل الترام ، عرج على محل حلوانى ، واشترى علبة متواضعة من الفواكه المسكرة ، وملفًّا صغيراً من الشكولاته ثم توكل على الله وقصد إلى بيت حميه . . .

ودخل على امرأته ، مشرق الطلعة ، برىء النظرة ، ضاحك السن ، كأنه كان منذ لحظة معها ، وكأن لم يحدث بينهما أى شىء .

ودهشت عنايات وتحفظت . وقابل أبوها وأمها وأخوها تصرف صفوت بالسرور والارتياح وإن كانوا قد التزموا هم أيضًا جانب التحفظ ، وبدت عليهم أمارات الفتور . فلكى يحل صفوت عقدة تحفظهم ، ويبدد فتورهم ويدهشهم ويبهرهم ، لم يسرع بمصالحة امرأته ، ولم يعتذر إليها ، ولم يشر ولو من طرف خفى إلى حدوث أى نزاع بينهما ، بل أسرع وقدم إليها علبة الفواكه المسكرة ، ثم اجترأ وعانقها فى حرارة

وقبلها ، ثم استفسر عن صحة جميع أفراد العائلة ، ثم داعب حماته العابسة ومازحها ، وطفق ينثر المجاملات الرقيقة والدعابات اللطيفة والنكت المستملحة ، وهو يحتضن ابنته ويهدهدها ، ويلمس فى يدها ملف الشيكولاته ، ضاحكاً لنكته ، متباهياً متفائلاً مستبشراً . . .

وأذهلت الكل هذه الروح البسيطة الطيبة السمحة وطمأنتهم . فانتعش جو البيت ، وانتعش صفوت نفسه بهذا الجو. فأمعن فى القفش والتنكيت . فانتشر المرح مجلجلا ، وابتسمت الحماة بالرغم منها ، وقهقه زوجها ، وكاد ابنه أن يستلقى على ظهره من فرط الضحك .

أما عنايات فقد ظلت ثابتة فى تحفظها ، ولكنها ما لبثت أن ابتسمت مكرهة ، ثم ضحكت ، ثم لم تستطع حيال طوفان النكت إلا أن تقهقه كالآخرين وهى ناقمة على نفسها .

ولما اطمأن صفوت إلى أن الجو قد صفا ، عرض فى لباقة على امرأته أن يعود بها إلى البيت . ولكن عنايات التى أرادت أن تمتحنه وأن تستوثق مما إذا كان قد طالع الرسالة بإمعان وتدبرها وأصبح وفى عزمه أن يغير حقاً من طباعه وأخلاقه ، رمته بنظرة متأبية صارمة أدرك هو معناها ، ولكنه تجاهلها وأغضى عنها . فقالت له إنها الآن طالق ولن تعود إلى بيته ، وإنها فى حاجة إلى التفكير الطويل والترفيه عن نفسها فى جو أسرتها قبل أن ترضى بالعودة إليه لو اعتزم أن يردها . فصاح أنها امرأته وأن لا غنى له عنها ، وشفع قوله بنكتة طريفة فذة . فاطمأنت الحماة وزوجها وابنها ، وراعتهم النكتة . فهتفوا لها ، وضحكوا ضحكاً قاصفاً

وابتهجوا بقضاء السهرة فى صحبة صفوت المرح الطروب . فاستبقوه ملحين متشبثين . فأراد أن يستزيدهم سروراً ومرحاً . فنهض مسرعاً ونضا عنه بعض ثيابه ومال إلى حجرة النوم فاختطف من الشماعة إحدى جلاليب حميه ، وارتدى الجلابية وخرج عليهم .

وكانت الجلابية ضيقة وقصيرة . فانحشر فيها صدره المكتنز ، وبرز منها كرشه المتكور ، وبدت من تحتها ساقاه عاريتين ملبدتين بالشعر . فرشقته عنايات بنظرة احتقار ، وتصورت لفورها هيكل سامح . وضج الجميع وأغرقوا فى الضحك . فأجال صفوت البصر فيهم وهو يضحك مثلهم ويتواثب كأنه يرقص ، ثم راق له بغتة أن يدهشهم أيضاً ، أن يبهرهم أيضاً ، أن يضاعف أيضاً سرورهم بهذه الليلة السعيدة الشائقة . فاندفع نحو سترته ، وأخرج منها حافظة نقوده . ثم نادى الخادم فى صوت معتز جهير وناولها فى شجاعة جنيهين كاملين ، وأمرها بأن تذهب وتشترى « اثنين كيلو » من لحم الضأن الـ « ملبس » باللية ، وعشرة أرغفة وكثيراً من البقدونس والطماطم والخيار . . . وما إن اختفت الخادم حتى أسرع هو إلى الحمام وأشعل وابور الغاز ، ثم ثبت فوقه المشواة ، ثم حمل الوابور إلى غرفة الصالون ، ووضعه على الأرض ، وتربع تجاهه ، وأشار إلى الجميع أن يتربعوا حوله ، وجعل يفرك يديه ويبتسم . . . ولما عادت الخادم أمرها بأن تغسل البقدونس ، وتعد طبقاً من السلاطة المتقنة . ثم تناول منها اللحم ، وقلبه لحظة ، وتفحصه ، ورضى عنه ، ثم بدأ يرص الشرائح فى دقة على المشواة ، ورأسه يهتز ، وعيناه المتلهفتان تلمعان .

وتصاعدت فى الجو رائحة الشواء . وعادت الخادم تحمل صينية فيها السلاطة والبقدونس والخبز . فتقاطر الجميع على صفوت ما خلا امرأته ؛ فاستمهلهم فلم يمهلوه . فجعل يلتقط بأصابعه قطع اللحم المشوية ويدس كل قطعة فى شطيرة من الخبز ، ويقدمها مبتهجاً لأقرب يد ممتدة إليه متهافتة عليه . واختص نفسه بالقطع الكبيرة ، وشرع ينهشها فى نهم ، ويمضغها فى شغف ، ويستمرئها فى نشوة ، وعنايات التى لم يستخفها كل ما كان يجرى حولها ، تتأمل صفوت ، وترى شراهته وغلظته ومكره وسخاءه الغشاش ماثلة فى عينيه ، وفى فكيه ، وفى شفتيه ، وفى أسنانه الوطيدة التى تطحن الطعام طحناً وتبتلعه كأنها تختزن ثروة عزيزة وتطمرها . . .

وعاودها شعور التقزز ، وظلت تنعم النظر فى الرجل . . .

أيقنت أنه لم يتغير ولن يتغير . . . وعندما تحول إليها مبتسماً وقدم لها قطعة الخبز الدافئة ، لم تنظر إليه هو ، بل نظرت إلى قطعة الخبز وما فيها . . . . نظرت إلى اللحم . . . إلى شريحة اللحم المشوية المتألقة النضاحة بالدهن . فوهن منها العزم وهى ذاهلة ، وتراخت أعصابها على الرغم منها ، وانجابت السحب عن ذهنها فجأة وأدركت . . . أدركت وهى ترتعد أن هذا اللحم هو الخمر ، هو النسيان ، هو الخلاص ، وأنها فى أعماق ذاتها وبرغم الثورة التى انفجرت فى رسالتها ، امرأة تقنع بالكلام فقط ، وتفرج عن صدرها بالكلام فقط ، وأنها أضعف وأعجز من أن تثور بالفعل على هذا الخلاص ، وأنها ما دامت عاجزة أمام

نفسها وأهلها ، عاجزة عن تحطيم بيتها وأمنها ومستقبل ابنتها ، عاجزة عن المغامرة بحياتها فى زواج جديد مجهول المصير ، فيجب أن تعيش فى الغد أيضًا مع هذا الرجل ، ويجب أن تنسى إلى الأبد قلبها وحبها وآمالها ، ويجب أن تضحك ، ويجب أن تمرح ، ويجب أن تحب هذه الخمر ، هذا اللحم . . . هذا اللحم الذى يثير حتى الآن تقززها واستنكارها .

وترددت لحظة وارتجفت . ولكنها تناولت قطعة الخبز ، وأدنتها من فمها ، وعضت على اللحم بأسنانها ، واحتواها عبير الشواء الخانق ، وتحدرت من عينها المقهورة دمعة . . .

اللحظة الحاسمة

كان ممدداً على فراشه ، محنقًا وساخطًا ، يحاول أن يجمع شتات خواطره ، ويفكر . . .

لماذا أراد له القدر أن يفقد أباه وأمه ، وأن يعيش هنا فى بيت شقيقته ، بجوار زوجها الفظ الغليظ ؟ . . . خمسة أعوام وهو سجين هذا البيت ، ينفق على نفسه من دخل منزل شعبي صغير آل إليه بعد وفاة والده . أين يومه الحالك من أمسه الباهر ، وأين حاضره الملبد من شمس ماضيه التى لم تحجبها أبداً غيوم . لقد فقد حنان الأب والأم . إنه اليوم غريب فى بيت غريب . إن زوج شقيقته يكرهه ويحتقره ، ولا يطيق من امرأته أن تعطف عليه كما تعطف على أولاده هو . ومع ذلك فقد حاول « عاصم » أن يتقرب إلى هذه الرجل ، أن يخطب وده ، أن يتفانى فى خدمة أولاده . ولكن الرجل كان يزجره وينهره ، ولا يطمئن ويستريح إلا إذا رآه ، وقد ضاقت فى وجهه السبل يحتجب الأيام الطويلة فى حجرته ، تأكله المرارة والحسرة ، ويحبس الدمع فى عينيه ما استطاع . . . هذه هى حياته . لا مفر له اليوم منها . يجب أن يحتمل أيضًا ويصبر أيضاً ، حتى يتم دراسته ويتخرج من الجامعة ، ويصبح فى مقدوره أن يستقل بنفسه ، ويسترد كرامته ، ويشعر أنه فى الحق رجل وفى الحق إنسان . ولكن بأية قوة ، بأى حافز ؟ . . . أسفاه . . . كان يستلهم القوة من بنت عمه « إنعام » . كان يزورها فى

بيتها وهو يرتجف حباً لها وشغفاً بها . كان واثقاً من ميلها الشديد إليه ، مؤمناً بطيبة قلبها الكريم السمح ، عاقداً أمله على أن يفوز يوماً بها ويتزوجها . بيد أنها الآن وقد شبت وترعرعت أصبحت تحتقره هى الأخرى ، تنظر إليه من عليائها ، تعرض عنه باحثة عن الزوج الثرى الذى فى وسعه أن يغدق عليها شتى مناعم الترف ومباهج الدنيا . فبنت العم حالفت عليه زوج الأخت ، وبصيص النور الذى كان يتعلق به قلبه شارك الليل فى قسوته وبطشه وغاب واختفى هو أيضاً فى لجة من ظلام . . .

طافت هذه الخواطر بذهن عاصم ، فأغمض عينيه وحاول أن يقر السكينة فى نفسه وينام . ولكن الأرق استبد به وأعياه . فنهض مكروباً . وأطل من نافذة حجرته . وفجأة حانت منه التفاتة إلى الشرفة المواجهة . فانتفض وكاد أن يرتد ويوصد النافذة . . . أبصر فى الشرفة بنت جارهم المهندس الأشيب العجوز ، أبصر « روحية » الفتاة الشاحبة الوجه ، الساهمة العينين ، الغائرة الخدين ، الفاحمة الشعر ، أبصرها ساهرة تحدق فى القمر وكأنها تائهة فى عالم بعيد مجهول . . .

وأحست الفتاة بعاصم وهو يطل من النافذة ، فانحنت على سور الشرفة ومضت تشخص إليه . أما هو فاضطرب وارتبك ، ولم يشأ أن يرفع النظر إليها ، وأسرع وارتد إلى حجرته دون أن يغلق النافذة . . .

كان يعلم علم اليقين أن روحية تحبه ، وأنها هى الطيبة ، وهى الوديعة ، وهى التقية الورعة الحريصة على تأدية شعائر الدين . ولكنه

برغم هذا كان ينفر منها . كان يتجنبها لفرط ما طبعت عليه من انطواء يخنق فيها روح الطلاقة والمرح . أجل . كان ينفر منها وينسى أنها هى وحدها التى تحبه أضعاف ما تحبه شقيقته ، وهى وحدها التى كانت تزوره كل يوم لتطمئن عليه عقب إصابته بتلك النزلة الرئوية التى التى كادت تهلكه .

ولم يستطع أن يفكر فيها أو يتمثلها فى خياله . فاندفع ملهوفاً وطفق يفكر فى إنعام ، فى بنت عمه المستكبرة الشامخة ذات المرح المستهتر الصارخ الجرىء .

تمثلها هى . تمثل إنعام بعينيها الزرقاوين ، وخديها الموردين ، وصدرها الناهد ، وبياضها الناصع ، وشعرها الكستنى الثائر الذى يهدر كالموج على منكبيها العريضين .

وما إن تمثلها حتى خلبه جمالها ، ودوت فى سمعه ، فى الوقت نفسه ، ضحكتها ، ضحكتها العابثة الماجنة المتبجحة التى يكرهها والتى طالما التمس من الفتاة أن تقلع عنها . فكانت إنعام تعده ، ثم تخلف ، ثم تندم وتطلب الصفح ، ثم ترتد إلى طبيعتها القاسية ، فترمق عاصم بنظرة ترفع وازدراء وهى تلوى عنه مختالة وتبتسم . . .

تصور الشاب كل هذا ، فثار دمه ، واشتعل مع ذلك حبه وأمله . فاتقدت عزيمته اتقاداً يشبه غائلة من الحمى ، وأقسم أن يكافح كفاح جبار كى ينجح ، فيثبت بالنجاح شخصيته ، ويؤكد كرامته وحريته ، ويقترن فوق ذلك ببنت عمه الشامخة المستكبرة إنعام .

* * *

وارتمى فى تيار العمل بهمة لا تعرف الكلال . أمضى أسابيع وأشهراً وهو مكب على الدرس والتحصيل . واستمد من جرح كرامته دماً جديداً حفزه إلى التغلب والاستعلاء .

ولما أقبلت أيام الامتحان لم يجزع ، بل جازها فى ثقة راسخة وعزم مكين . فنجح بتفوق ، وتخرج من كلية التجارة فائزاً فطربت أخته ، وأسرعت جارته الرقيقة الوديعة روحية وهنأته على نجاحه وهى تحدق فيه محنية الرأس ، رازحة تحت وطأة يأسها . أما زوج شقيقته الفظ الغليظ ، فقد هنأه وهو يسخر منه ويقول له إن النجاح شىء والعثور على الوظيفة شىء آخر . وأما إنعام التى أذهلها نجاحه ؛ فقد استخفت بهذا النجاح اعتقاداً منها أن المؤهل الذى حصل عليه عاصم لن يمكنه من الظفر بالمكانة الممتازة والمنصب الكبير الذى تحلم هى به لمن تختاره زوجاً لها .

وهكذا أقبلت لتهنئة الشاب ولكن بعد أيام ، وغلبها طبعها ، وكادت أن تطلق تلك الضحكة العابثة المستهترة التى يكرهها . ولكنها خشيت أن تغضبه . فاصطنعت الرصانة والجد، وصافحته فى حرارة ، ثم هنأت أيضاً شقيقته ، وانصرفت كأنها لم تقبل إلا لتأدية واجب ، ومجاملة غريب . فاستهول منها عاصم هذا المسلك المزرى . فاشتد حنقه ، واستعر حبه ، وعاهد نفسه على أن يبذل المستحيل كى يخضع هذه الفتاة الشامخة المستكبرة ويطوعها آخر الأمر لإرادته .

وانطلق يجاهد ويسعى ويطرق جميع الأبواب ، حتى أسعده الحظ

ووفق فى إحدى الشركات إلى وظيفة مجزية ومرموقة، خليقة بنبوغه ، ولم يكن هو نفسه يحلم أبداً بها .

عندئذ تبدل فى مثل لمح الطرف كل شىء . تغيرت بنت العم وتغير زوج الأخت . راعهما المنصب الثابت والأجر الوفير . فأراد زوج الأخت أن يزوج عاصم بإحدى قريباته ، وأرادت إنعام التى لطفت بعض الشىء من كبرها وغرورها أن تقهر زوج الأخت وتفوز بعاصم لنفسها . فبدأت المنافسة بينها وبين الرجل الفظ الغليظ . فكان كل منهما يتبارى فى التقرب إلى عاصم والتزلف إليه والمبالغة فى تقديره ، وهو ينظر إليهما وقد ردّ اعتباره إلى نفسه ، مثلج الصدر مرفوع الرأس ، يستمرئ لذة تفوقه ونصره ، ولا يستطيع أن ينسى عذابه ، وينسى ما كان بالامس من تصرف إنعام .

حزّ فى صدره أنها أقبلت عليه بعد أن ابتسم له الحظ ، فأدرك أنها دمية لا امرأة ، دمية لا قلب لها ولا روح ، وأنها لا تحبه بل تحب أسباب الترف وألوان النعيم التى تعتقد أن فى مقدوره اليوم أن يغدقها عليها . ولكنه مع ذلك كان يهيم بها . كان يعشقها . كان يحس أن ليس فى وسعه أن يعيش ويسعد إلا إذا تزوجها . فودع بيت شقيقته ، وتخلص من قرينها الفظ الغليظ ، واتخذ له مسكناً مستقلاً فى نفس الشارع الصغير الذى ينهض فى زاوية منه بيت إنعام ، ثم اندفع يلقى فى روع نفسه أن فى استطاعته أن يبدل من خلق بنت عمه بعد الخطبة والزواج ، وأن يهذب من طبعها ، ويوقظ قلبها ووجدانها ، ويدفعها

إلى التعلق به تعلقاً عاطفياً نزيهاً خالصاً .

ولم يتردد وصارحها برغبته فيها . فرحبت به الفتاة متهافتة . فخطبها وقدم لها شبكة ثمينة ، ورجا عمه أن يمهله بضعة أشهر يعد فيها المهر ويتهيأ للزواج .

* * *

ووقع النبأ على روحية وقع الصاعقة . أيقنت أن «عاصم» لم يهتم أبداً بها ، لم يفكر أبداً فيها ، لم يشعر لحظة بمبلغ حبها وإخلاصها فاشتدت لوعتها ، وزاد فى حرقة يأسها أنه ابتعد عنها واتخذ له مسكناً بجوار منزل إنعام ، وأنها مهما أطلت اليوم من شرفتها ومهما أراقت من ماء عينيها ، فهى لن تبصر على الأقل طيفه أمامها ، يروح ويغدو فى بيت شقيقته ، هذا البيت الذى استحال فى نظرها إلى كتلة غاشمة هامدة صماء ..

وأظلمت الدنيا فى وجه روحية ، فانطوت أيضاً على نفسها ، واتشحت بالسواد كأنها فى حداد على حظها ، وباتت ولا ملاذ لقلبها وروحها إلا فى الصلاة والصوم . ومختلف ضروب العبادة والتقوى .

وفى غضون ذلك كان عاصم يتعذب أكثر مما تتعذب روحية . كان يزور خطيبته إنعام كل يوم تقريباً ، ويحاول جاهداً أن يهذب من أخلاقها ، أن يبدل من روحها النفعية المغرضة ، أن يحرك قلبها وعواطفها ، أن ينفرها من ضحكتها العابثة المستهترة التى يكرهها . ولكن إنعام كانت قد استوثقت من عمق حبه لها ، وتأكدت من سلطانها البالغ عليه ، واطمأنت إلى أنه قد ارتبط بها ولم تعد له غاية فى الحياة إلا أن يصبح

زوجها . فارتدت إلى سابق زهوها وكبرها ، وأطلقت لغرائزها العنان ، ومضت تستبد به ، وتتحكم فيه ، وتنتقص من قيمة الشبكة الثمينة التى كانت قد أعجبتها ، وتسخر من هداياه وتقول إنها شائعة ، وتطمع فى غيرها مستوردة ونادرة ، وتطلب مهراً كبيراً ، وسكناً وجيهاً ، وحياة مترفة تليق بها ويمكن أن تكون إطاراً رائعاً خليقاً بجمالها .

وتمزق قلب عاصم وانهار حلمه . أحس أنه مهما حاول فلن يستطيع أن يبدل ما جبلت عليه إنعام من طمع مروع مقرون بالتلون والتجبر والسخرية والإذلال . فازداد يقينه أن من المحال عليه أن يعيش فى غد معها . فباعد من زياراته لها ، ثم انسحب شيئاً فشيئاً ، ثم استجمع قواه ذات يوم ، وحزم أمره وفسخ الخطبة . . .

وعبثاً حاول عمه أن يسترده ويوفق بينه وبين إنعام . كان عاصم يتوقع من الفتاة أن تراجع نفسها ، أن تتنبه لنقائصها ، أن تسعى إليه أو تكتب له ولو مرة . ولكنها استكبرت عليه كعادتها ، بل وتمادت فى عدم اكتراثها ، وبعثت إليه بالشبكة والهدايا . فردها من فوره ، والتهب فيه شعور مزدوج عجيب . زاده هذا التحقير تعلقاً بإنعام ، وأضرم فى صدره ، فى الوقت نفسه ، نار العزة والرجولة والإباء .

كان ما يزال يحب الفتاة ، ولكنه غالب نفسه وأبى أن يعود إليها . أبى أن يرمق بيتها المجاور لبيته ولو بنظرة . غير أنه ما إن حجبها عن مرآه حتى شقى بنفسه المتوحدة وأوشك أن يتردى فى هوة ما لها من قرار . أحس لأول مرة وطأة الحرمان والذل . تولته كآبة مستعصية ، وظل أياماً

بطولها حاملاً همه ،قابعًا فى عزلته ، ثائراً على أحلامه الجميلة الخائبة .
ثم ضاق ذرعًا بنفسه ، وعزّ عليه أن يحزن ويبتئس من أجل فتاة نفعية لا قلب لها . فأراد أن يتخلص ، أن يتنفس ، أن يعيش . فتراءى له فجأة طيف روحية ، روحية الوديعة الرقيقة المنكسرة ، روحية التى أحبته حق الحب فتنكر لها ،وجحد حبها ، وسامها أقسى ضروب الصد والهوان . ففكر فيها . فلاحت له بوجهها الشاحب ، وشعرها الفاحم وعينيها الساهمتين . فألفاها جميلة جمال الأسى الصابر ، وأحس على دهش منه أنه بقدرما كان ينفر منها أصبح الآن يصبو إليها ، ويعتقد ، بل يؤمن ، أنها بقلبها الطاهر وطبعها القانع ونفسها الصافية ، هى التى يمكن أن تنقذه وتجدد حياته وتجعل منه أسعد الأزواج .

ولم يتمهل وعزم أن يذهب إليها ، عزم أن يطلب يدها ، أن يفصل فى مستقبله ومصيره ويسدل على الماضى الستار .

وطرق بابها عصر يوم ودخل منزلها . دخل مطمئن النفس ، منشرح الصدر ، متخففًا من عبئه الذى أثقل كاهله . فاستقبله والدها دهشًا ومرحبًا . فتهلل وجه الشاب ، وتلفت يبحث عن روحية . بيد أنه ما إن اتجه نحو الصالون ونفذ إليه حتى أجفل وتراجع إذ وقع بصره على الفتاة جالسة فى ركن قصى ، محنية الرأس ، مسبلة الطرف ، شاحبة الوجه ، تتحدث فى تعثر إلى رجل جالس تجاهها يناهز الخامسة والأربعين ، مترهل الجسم ، مصبوغ الشعر ، ضيق العينين ، كث

الحاجبين ، أنيق الملبس، يتكلم فى ثقة واعتزاز وهو يبتسم للفتاة ابتسامة ملؤها التودد والملاطفة .

ورفعت روحية رأسها ، فالتقت عيناها بعينى عاصم . فذهلت ثم نهضت وحيته ، وجعلت تحدق فيه مستغربة وهى ترتعش. فتحول هو إلى الرجل الغريب . فأسرع والدها وعرفه به قائلاً إنه تاجر الأخشاب الوجيه المعروف الحاج عبد المحسن ، وأنه قد شرف الأسرة بأن طلب يد روحية وخطبها منذ أسبوع . . . فامتقع وجه عاصم . أحس كأن ظلمة عاتية تغشى بصره، ويداً جبارة تطبق على صدره، وكأن شيئاً عزيزاً ثميناً كان يثق أنه فى قبضة يده قد انتزع منه انتزاعاً وفى غمضة عين . فلم يستطع إلا أن يحيى الرجل ، ويهنئ الخطيبين وهو يتجلد ويحاول أن يجامل ويبتسم . أما روحية فكانت ما تزال تحدق فيه . كانت تحدق فيه مبهوتة وحائرة ، لا تعرف ما الذى جاء به الآن ولأى غرض . ولكنها وهى تتأمله ، وتبصر وجهه الممتقع ، وعينيه البائستين، وهيكله المتداعى ، أشرقت بصيرتها ، واستشعرت لفورها أن إنعام قد عذبته ، وأنه قد تخلى عنها، وأقبل ملهوفاً ولائذاً بها هى . فعادت وأنعمت النظر فيه ، ثم أطرقت وشردت ، ثم نظرت إلى الرجل الغريب ، إلى خطيبها ، ثم إلى والدها ، وانتفضت ولم تستطع إلا أن تغادر المكان وتسرع لإعداد القهوة . ولما عادت وقدمت القهوة بيد ترتجف، كانت سحابة كثيفة تخيم على وجهها . فتأكد عاصم أنها قد رضيت بهذا الزوج على الرغم منها ، وأنها قد يئست واستسلمت لحظها . فنهض

متحاملاً على نفسه ، وحيا الرجلين ثم صافح الفتاة وهو يقول لها :

— مبروك يا روحية . . . إن شاء الله تتهنى وتفرحى . . .

فتطلعت إليه الفتاة بعينين زائغتين ورفت أهدابها ولم تتكلم . ثم رافقته حتى الباب ، وهى تتبعه النظر الساهم الشارد ، وتعض على شفتيها وتختلج .

* * *

وخرج عاصم منقبض الصدر ، كسير النفس ، محطم الأمل . وطفق يتجول فى الشوارع ، ويتأمل الشمس الغاربة ، ويتصور الظلمة توشك أن تغمر حياته كما توشك أن تغمر البقية الباقية من ضوء هذا النهار . بيد أن الحنق المرير احتواه ، وتصاعد من صدره غصة كادت أن تخنقه . عزّ عليه أن يودع كل شىء ، أن ينهزم فى كل شىء ، أن يفقد روحية ويفقد أيضًا إنعام . فتمثل إنعام وخفق قلبه . لم يجد أمامه غيرها . لم يبق له سواها . فانبعث حبه لها انبعاث الأمل المجدد الأخير فى وجدان تائه محروم . فلم يستطع إلا أن يتجه إليها ، ويتهافت عليها ويتعلق بها . فمشى مدفوعًا بقوة لا تقاوم . مشى كما يمشى المتلهف الظمآن ، حتى بلغ الشارع الصغير الذى ينهض فى زاوية منه بيت إنعام ، وبقربه البيت الذى يسكنه هو .

وكانت إنعام إذ ذاك فى لحظة من لحظات الفراغ والضجر ، تتلهى بالنظر إلى الشارع من نافذة حجرتها . فما إن لمحت عاصم مقبلاً حتى قطبت حاجبيها ، واعتقدت أنه سيدخل بيته كعادته دون أن يرفع رأسه

ويتطلع إلى حجرتها . فانزوت خلف النافذة معتزة وغير حافلة . ولكنها سرعان ما دهشت إذ أبصرت الشاب يتحول ويتجه صاغراً نحو بيتها هى . فلمعت عيناها ، واضطرم كبرها ، وأطلت من النافذة ولوحت بيدها .

فأحس عاصم بوجودها ، ورفع رأسه ونظر إليها . وكانت بصدرها الناهد ، وبياضها الناصع ، وشعرها الكستنى المموج ، جميلة جمالاً ساحراً . فتوقف الشاب وظل يشخص إليها وهو منجذب ومأخوذ . فابتسمت له . فهم بأن يدخل بيتها . وعندئذ وقع شيء غريب ، شيء لم يكن فى الحسبان أبداً . ترامت إلى سمع عاصم خطوات إنسان .

فالتفت وإذا به يبصر روحية ، روحية نفسها ، قادمة إليه ، مندفعة صوبه ، لا ترفع عينها إلى النافذة ، بل تقف تجاهه صامتة وهى ترتعش . فاكفهر وجه إنعام ، ولم تشك أن عاصم قد اتصل بروحية . فانحنت أيضًا ولبثت تطل على الشاب والفتاة ، وتحدق إليهما بعينين جاحظتين وتنتظر . . .

ودنت روحية من الشاب ، وانحنت عليه ، وقالت فى نبرة قاطعة :

ـــ الراجل اللى شفته عندنا . . . الحاج عبد المحسن . . . أنا مش عايزاه . . . أنا قلتلو ما فيش قسمة . . . وقلت كمان لابويا ماخدوش أبداً . . . أبداً .

والتقطت أنفاسها وأردفت :

— وانت لما افتكرت فينا وجيت وزرتنا ، قلت يمكن تكون عايزنى . . . وادينى اهو يا عاصم . . .

فذهل الشاب ، وتفرس فيها ، واشرأب بعنقه ، وجعل ينقل الطرف بينها وبين إنعام . بين بنت عمه الحسناء الخالبة التى عذبته والتى يشعر مع ذلك أنه متعلق بها ومنجذب إليها ، وبين الفتاة المنكمشة المنطوية الوفية التى راعته شجاعتها وما أقدمت عليه فى سبيله من تضحية .

وظل متخبطاً فى حيرته واضطرابه لحظة . ولكن عينه التى كانت ترمق بنت عمه ، لم تقو على التخلص منها ، لم تقو على التحرر من تأثيرها ، لم تقو على التحول عن صدرها الناهد وبياضها الناصع وجمالها الفتان . فانثنى بالرغم منه إلى الفتاة وغمغم :

— ليه . . . ليه عملت كده يا روحية ؟ . . .

فحملقت فيه الفتاة وتحطم قلبها .

أدركت أنه لم يزل مأخوذاً ومفتوناً بإنعام ، وأنها هى قد تهورت وضحت وأهدرت كرامتها على غير جدوى .

فتراجعت محنية الرأس منسحقة وهمت بالرحيل .

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة الفاصلة ؛ فى تلك اللحظة الحاسمة ، أيقنت إنعام أن الشاب قد امتثل وخضع وأصبح لها وحدها . فلم تستطع أن تغالب طبعها ، وأطلقت تلك الضحكة التى كان عاصم يبغضها ، تلك الضحكة العابثة الساخرة المستهترة المتبجحة ، تؤكد بها انتصارها على الشاب وعلى غريمتها . فتسمرت روحية فى مكانها إذ رأت

عاصم يرتعش وقد احتقن وجهه . لم يرتعش فقط بل ثبت بصره فى إنعام وهى ما تفتأ تضحك ، وغلى الدم فى عروقه ، واشتد سخطه فجأة وصحا .

أحس وأدرك وتيقن أن هذه الفتاة العابثة الماجنة المستكبرة التى انتصرت اليوم عليه ، لابدّ أن تثبت انتصارها أيضًا فى غد لو تزوجها بأن تمعن فى الاستبداد به والتحكم فيه وتسميم حياته كما كانت تفعل بالأمس . فكبر عليه أن يذل ويمتهن العمر كله ، أن يُستعبد ويؤسر طوال حياته . فلكى يفر من ضعفه ، لكى يتخلص من صغاره وذله ، أهاب بكل ما فيه من مدخر الإرادة والعزم . وقبل أن تتحرك روحية وتعود وتهم بالرحيل ، اندفع نحوها ، وأمسك بها . فبهتت الفتاة ولم تصدق فرحتها . فجذبها إليه ملهوفًا ومشى بها وهو يتأبط ذراعها . فذهلت إنعام ، وجن جنونها ، ولم تستطع وقد كان النصر ملك يمينها . إلا أن تترخص وتنزل مكرهة عن كبريائها . فأخذت تضرب حافة النافذة بكلتا يديها ، وتصرخ :

— عاصم . . . عاصم . . .

فلم يكترث الشاب لها ، وسار بضع خطوات متأبطًا ذراع روحية . ولكن صراخ إنعام تعقبه وأرجفه وهزه من الأعماق . فاختلج بالرغم منه اختلاجًا عنيفًا ، وتقبضت عضلات وجهه ، وطفرت من عينه دمعة . فتوقفت روحية مستهولة ، ونظرت إليه ، ثم صدته عنها ، وأفلتت ذراعها

منه ، وقالت وقد اصفر وجهها ، وانطفأت فرحتها ،وتهدج صوتها لوعة ومرارة وأسى :

— بتبكى يا عاصم ؟ . . . بتبكى ليه ؟. . . بتبكى عليها . . . مش كده ؟ . . . انت عمرك ما حبتنى . . . انت طالب منى تعزية مش حب . . . ولو اجوزتنى حاتعذب نفسك أكتر وتعذ بنى . . . انت بتحبها هى . . . بتحبها هى . . . روح لها . . . روح . . .

وأسرعت الفتاة ، وحولت وجهها عنه ، واجتازت الشارع بخطى واثبة ومحمومة واختفت . فأبرقت عينا إنعام ، وأشرقت أساريرها ، وتأكدت من النصر بعد الهزيمة . فتطلع إليها عاصم ، وظل فترة يحدق فيها . ولكنه لم يستطع أن يتقدم نحوها . لم يستطع أن يدخل بيتها . لم يستطع أن ينسى ضحكتها . فأرسل نفساً مستطيلاً وتصلب ، ثم استدار فجأة ، وحث خطاه ، وانطلق فى الشارع الكبير ،وجعل يمشى على غير هدى . . .

سلسلة (اقرأ)

الكتب التى نشرت فيها منذ صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين)
٦ شاعر ملك (على الجارم)
١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد)
١٤ من يوميات فتاة عصرية (حسين شوقى)
١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقى)
١٩ سيدة القصور (على الجارم)
٢٢ جحا فى جانبولاد (محمد فريد أبو حديد)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣٢ الشيخ قرير العين (كرم ملحم كرم)
٣٤ فارس بنى حمدان : أبو فراس الحمدانى (على الجارم)
٤٣ عنترة بن شداد (محمد فريد أبو حديد)
٥١ الشاعر الطموح : المتنبى (على الجارم)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
٦٣ رفيق الأرض (نظمى لوقا)
٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحى)
٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
٩٢ الجامحة (أمينة السعيد)
١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحانى)
١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
١٢١ عذراء الأندلس (أحمد الصاوى محمد)
١٢٢ أشطر من إبليس (محمود تيمور)
١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
١٣٠ فى بطون الليالى (رشاد دارغوث)
١٣٥ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان)
١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل)
١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قلعجى)
١٥٣ دماء وطين (يحيى حقى)
١٥٥ بنت يزيد (سامى الكيالى)
١٥٩ أجواء (حسن محمود)
١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد)
١٦٧ أنات الساقية (عبد الله القرشى)
١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد)
١٨٣ الثريا (كمال بسيونى)
١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد)
١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد)
١٩٩ عرس ومأتم (البدوى الملثم)
٢٠٠ مواطن أمام القضاء (فاضل السباعى)
٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد)
٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر)
٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العنانى)
٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصرى)
٢٤٠ نفوس تتكلم (ودادسكاكينى)
٢٧٣ مذكرات طبيبة (نوال السعداوى)
٢٧٦ صنيعة الشيطان (حسن رشاد)
٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق)
٢٨١ خالدون فى الوطن (إبراهيم المصرى)
٢٨٣ دماء فى الفجر (فاروق حلمى)
٢٨٤ عروسة على الرف (صوفى عبد الله)
٢٨٧ قصص من جوته (عبد الغفار مكاوى)
٢٨٨ قصص الحب العربية (عبد الحميد إبراهيم محمد)
٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
٢٩٢ شىء من الخوف (ثروت أباظة)
٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوى)
٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحى)
٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد (فايد العمروسى)
٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً . وقصص أخرى (فتحى رضوان)
٣٤٣ إنى صاعدة (حلمى سلام)
٣٤٤ الوادى السعيد (لويس عوض)
٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
٣٥٠ دموع فى عيون ضاحكة (يوسف جوهر)
٣٥١ من أخطاء القضاء (حسن صالح الجداوى)
٣٥٢ عندما تحب المرأة (حلمى مراد)

فى الأدب

٢ شاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة
(عباس محمود العقاد)
٤ عود على بدء
(إبراهيم عبد القادر المازنى)
٨ مذكرات دجاجة
(د. إسحق موسى الحسينى)
١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد)
٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس)
٢٣ صوت أبى العلاء (د. طه حسين)
٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل
وابن الأحنف (د. زكى مبارك)
٣٣ فى بيتى (عباس محمود العقاد)
٤٧ أبو زيد الهلالى
(محمد فهمى عبد اللطيف)
٤٩ بين البحر والصحراء
(شفيق جبرى)
٥٩ الجوارى (د. جبور عبد النور)
٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجرى)
٧٦ ثم غربت الشمس
(د. سهير القلماوى)
٨٣ من النافذة
(إبراهيم عبد القادر المازنى)
٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
١٠٢ من نافذة العقل
(د. نقولا فياض)
١٠٩ نديم الخلفاء : الحسين بن
الضحاك (عبد الستار أحمد فرج)
١١٨ المعذبون فى الأرض
(د. طه حسين)
١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم
(د. محمد سامى الدهان)
١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء
(توفيق الحكيم)
١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
١٣١ أمين الريحانى (فاروق عبود)
١٤٧ مارس يحرق معداته
(عيسى الناعورى)
١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد
وتيمور والزيات وأبو حديد والعريان
والشناوى (عباس خضر)
١٨٢ لمحات من الأدب الروسى
(ماهر نسيم)
١٩٣ دون جوان (لطفى عبد البديع)

٢٠٣ القومية العربية فى الأدب الحديث (د. محمد زغلول سلام)
٢٢٠ الحب المثالى عند العرب (د. يوسف خليف)
٢٢٦ النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ (سامى الكيالى)
٢٣٣ المرأة فى شعر البحترى (د. نعمات أحمد فؤاد)
٢٤٤ التماثيل المكسورة (رجاء النقاش)
٢٤٨ من الأدب الإفريقى
٢٥٩ مع العقاد (د. شوقى ضيف)
٢٦٠ دعاء (على أمين)
٢٦٧ آخر كلمات العقاد (عباس العقاد)
٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب (محمد بدر الدين خليل)
٣٣١ البطولة فى الشعر العربى (د. شوقى ضيف)
٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
٣٣٧ فى اللغة والأدب (د. إبراهيم بيومى مدكور)
٣٤٢ صراع الأجيال فى أدبنا المعاصر (غالى شكرى)
٣٤٦ ذكريات عارية (د. السيد أبو النجا)

السير والتراجم

٥ ديستويفسكى (حسن محمود)
٧ الشاعر الرجيم بودلير (عبد الرحمن صدقى)
١٥ بايرون (أمينة السعيد)
١٧ شكسبير (م. ف. أبو حديد، ز. ن. محمود، أ. خاكى)
٢٤ لافوازييه (عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين)
٢٨ بوشكين (نجاتى صدقى)
٣١ الغزالى (طه عبد الباقى سرور)
٣٥ جوته (صديق شيبوب)
٤٢ قصة عبقرى: الخليل بن أحمد (يوسف العش)
٤٦ الشيخ الرئيس ابن سينا (عباس محمود العقاد)
٥٠ تشيخوف (نجاتى صدقى)
٥٤ تولستوى (حسن محمود)

٦٥ عمر بن عبد العزيز (أحمد زكي صفوت)
٦٨ جمال الدين الأفغاني (عبد القادر المغربي)
٧٠ الجبرتي (خليل شيبوب)
٧٢ فولتير (سليم سعده)
٧٧ المغني المجنون : كاروزو (أحمد الصاوي محمد)
٧٨ سقراط (على حافظ بهنسي)
٧٩ بيرانديللو (محمد أمين حسونة)
٨٢ فرانزليست (خليل هنداوي)
٨٥ بيتهوفن (محمد فهمي أبو النصر وهدى حبيشة)
٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد)
٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (محمد محمد فياض)
٩٩ نساء محاربات (صوفي عبد الله)
١١٢ مع طه حسين (سامي الكيالي)
١١٤ عبقرية الإمام (عباس محمود العقاد)
١١٥ الإمام المراغي (أنور الجندي)
١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم)
١٢٥ الصديقة بنت الصديق (عباس محمود العقاد)
١٢٧ شلي (أحمد الصاوي محمد)
١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
١٤٠ عائشة بنت طلحة (كمال بسيوني)
١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم (محمد عبد الغني حسن)
١٤٣ ابن عمار (ثروت أباظة)
١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة العدوية (وداد سكاكيني)
١٦٢ مكسيم غوركي (نجاتي صدقي)
١٦٤ دانتي (مصطفى آل عيال)
١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسي)
١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
١٩٢ أدباء من الجزائر (د. إبراهيم الكيلاني)
١٩٧ جان جاك روسو (د. محمد سامي الدهان)
٢٠٤ فيكتور هوجو (د. جورج زايد)
٢٠٧ الناصر صلاح الدين (د. محمد سامي الدهان)
٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعي (محمد كامل حته)
٢٣٢ أبو القاسم الشابي (رجاء النقاش)

٢٥٠ ابن حمد يس الصقلى (على مصطفى المصراتى)
٢٥٤ من أعلام الحرية فى العالم العربى الحديث (أنور الجندى)
٢٥٦ عشرة من الخالدين (إبراهيم المصرى)
٢٦٩ قلوب الخالدين (إبراهيم المصرى)
٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول (د. على حسنى الخربوطلى)
٣٠١ مع طه حسين : الجزء الثانى (سامى الكيالى)
٣٠٦ سندباد فى رحلة الحياة (د. حسين فوزى)
٣٢٤ هوشى منه (جورج عزيز)
٣٣٦م. أيام خالدة فى حياة عبد الناصر (د. جمال الدين العطيفى)
٣٤٠ محمد عبد الوهاب (محمود عوض)
٣٤٩ هؤلاء علمونى (سلامة موسى)

سياسة وعلوم سياسية

٩ المذاهب السياسية المعاصرة (على أدهم)
٥٧ قضية فلسطين (محمد رفعت)
١٠٧ تحرير وادى النيل (محمود كامل المحامى)
١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان)
١٧٠ هذا الشرق العربى (فتحى رضوان)
٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية (د. على حسنى الخربوطلى)
٢١٦ وحدة العرب (إبراهيم الدسوقى البساطى)
٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)
٢٧٤ المزاعم الصهيونية فى فلسطين (فتحى فوزى عبد المعطى)
٢٧٥ الوحدة الإفريقية (محمد أبو الفتوح الخياط)
٢٩٥ فلسطين قلب العروبة (محمد فيصل عبد المنعم)
٢٩٦ البترول العربى فى المعركة (د. محمود أمين)
٣١٠ حوار مع برتراند راسل وسارتر (لطفى الخولى)

٣١١ حرب الأفيون
(محمد العزب موسى)

٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩
(د . محمد مظهر سعيد)

٣١٩ فى مواجهة إسرائيل
(د . إسماعيل صبرى عبد الله)

علم النفس

١٠ شفاء النفس (د. يوسف مراد)

٨٠ الحب والكراهية
(د . أحمد فؤاد الأهوانى)

٩٨ الخوف (د. أحمد فؤاد الأهوانى)

١٣٣ النسيان (د. أحمد فؤاد الأهوانى)

١٣٧ سيكولوجية الجنس
(د . يوسف مراد)

١٥٦ النوم والأرق
(د . أحمد فؤاد الأهوانى)

١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصرى)

١٦٦ الأحلام والرؤى
(عبد العزيز جادو)

١٧٠ القلق (د . أبو مدين الشافعى)

٢٠٢ الإرهاق العصبى (نظمى خليل)

٢١٧ لكى تكون سعيداً
(عبد العزيز جادو)

٢٢٩ الطريق إلى النجاح
(عبد العزيز جادو)

٢٣٦ عالج نفسك (د. كمال دسوقى)

٢٥٧ أمراض نفسية (د. كمال دسوقى)

٢٦٦ النقائص والنجاح
(ضياء الدين أبو الحب)

٢٩٠ شخصيتك فى الميزان
(د. عبد الكريم دهينة)

٣٠٧ قالت له
(محمد زكى عبد القادر)

علوم

١١ الكون العجيب
(قدرى حافظ طوقان)

٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)

٣٦ مع الحيات
(د. حسين فرج زين الدين)

٣٨ العلم والحياة
(د . على مصطفى مشرفة)
٤٨ غرائز الحيوانات
(محمد محمد فياض)
٥٢ النار الخالدة (فؤاد صروف)
٥٥ مع الأسماك
(د. حسين فرج زين الدين
وموسى باسيليوس)
٦١ الموج الساحر
(محمد عاطف البرقوقى)
٦٦ مملكة العذارى
(د . أحمد زكى أبو شادى)
٧٣ أسرار الحياة
(د . مصطفى عبد العزيز
و د . عبد العزيز أمين)
٧٥ العيون فى العلم
(قدرى حافظ طوقان)
٨٤ الوراثة والجنس
(د . عبد الحليم منتصر)
٩٠ قصة البترول
(يوسف مصطفى الحارونى)
٩٣ العالم سنة ٢٠٠٠
(على عبد الجليل راضى)
١٠٠ قصة العناصر (إمبابى أحمد)
١٣٢ البساط السحرى
(عبد السلام فهمى)
١٤٩ بين البقاء والفناء
(قدرى حافظ طوقان)
١٥٤ أينشتين والعالم
(محمد عاطف البرقوقى)
١٧١ حرب الخامات
(د . عبد الحليم منتصر)
١٧٨ الصعود إلى المريخ
(د . محمد جمال الدين الفندى)
١٨١ هجرة الحيوان
(د. أحمد حماد الحسينى)
١٨٥ الغبار الذرى
(د . محمد جمال الدين الفندى)
١٨٩ عصر الإلكترونات
(د . جورج وهبه العفى)
١٩١ الهزات الزلزالية
(محمد على المغربى)
١٩٦ قوى الطبيعة فى خدمتك
(محمد جمال الدين الفندى)
١٩٨ الكلف الشمسى
(محمد على المغربى)
٢١٤ عصر التليفزيون
(د : جورج وهبه العفى)

٢٤٩ عصر الطاقة الشمسية
(د . جورج وهبه العفى)
٢٥٥ العوالم الأخرى
(د. محمد جمال الدين الفندى)
٢٦٣ عجائب الأرض والسماء
(د. محمد جمال الدين الفندى)
٣٠٣ من عجائب الحياة
(فوزى الشتوى)
٣٠٨ البحر والناس
(د. سيد حسن شرف الدين)
٣٣٤ ماذا نستخرج من البترول
(د . جورج وهبه العفى)
٣٤٥ مذكرات ذرة
(عبد المحسن صالح)

جغرافيا ورحلات

١٦ دمشق مدينة السحر والشعر
(محمد كرد على)
٢٧ بغداد مدينة السلام (طه الراوى)
٤٠ مهد العرب (د. عبد الوهاب عزام)
٤٥ مشاهدات فى الهند (أمينة السعيد)
٦٩ رحلة الربيع (د . طه حسين)
٨١ فى بلاد النجاشى
(د . مراد كامل)
١٠٤ أرض المعجزات (د. بنت الشاطئ)
١٦٣ غرائب من الرحلات
(محمد عبد الغنى حسن)
١٦٨ القارة العذراء
(محمود العزب موسى)
١٧٣ الجزر الخضراء: أندونيسيا
(حبيب جاماتى)
١٧٧ صور من إفريقيا
(د . محمد محمود الصياد)
٢٠٦ جولة فى الإقليم الشمالى : سوريا (د . يوسف سماره)
٢١٨ الشفق القطبى (محمد على المغربى)
٢٢٥ المجتمع العربى (محمود الشرقاوى)
٢٣٠ الجغرافيون العرب
(مصطفى الشهابى)
٣١٧ صور باريسية
(يوسف فرنسيس)
٣٢١ الإنسان الأوربى فى الجد واللعب
(عبد الستار الطويلة)

طب وصحة

٢٥ قصة البنسلين
(د. مصطفى عبد العزيز)
٤١ الفيتامينات
(د. مصطفى عبد العزيز
و د. محمد رشاد الطوبى)
٤٤ قصة العدوى
(د. محمد عبد الحميد جوهر)
٦٤ الأغذية الشعبية
(حسن عبد السلام)
٧١ الهرمونات (د. فؤاد خليل
و د. محمد رشاد الطوبى)
١١٠ نحن المعمرون (حسن عبد السلام)
١٢٤ قصة العقاقير
(د. محمود محمد سلامة)
١٤٦ هذا الإنسان (د. حبيب صادق)
١٨٠ ضعاف العقول (مترى أمين)
٢١٠ أمراض الصيف (د. أنيس فهمى)
٢٢٤ الأسنان : أمراضها وعلاجها
(د. حليم الكدوانى)

٢٢٧ الإنسان والمرض (د. أحمد مختار)
٢٣٧ باقة طبية (محمد كامل سند)
٢٣٩ أخطاء الأطباء (د. فائق الجوهرى)
٢٧٢ الجسد والميكروب
(د. مصطفى عبد العزيز)
٢٨٢ الصيدلة علم وفن وإنسانية
(د. جورج وهبه العفى)
٢٨٥ فيتامينات وهرمونات
(د. محمد صدقى عبده
و د. محسن الدناصورى
و د. نجيب الأبراشى)
٢٨٦ الغذاء الكامل أساس الصحة
(أسامة أمين العطار)
٢٩٩ التغذية ومخاطر الصناعة
(د. أسامة أمين العطار)
٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها
(د. فاروق مرشد)
٣٣٦ النفس والبدن (د. إبراهيم فهيم)

اقرأ

وصلت فى قفزتها الأولى إلى ٥٠,٠٠٠ نسخة

وستصل فى هذه القفزة إلى ٧٠,٠٠٠ نسخة

صدر منها فى الأشهر الأخيرة :

أكتوبر	١٩٧١	:	ذكريات عارية للدكتور السيد أبو النجا
رمضان	١٣٩١	:	أحاديث رمضان للدكتور عبد العزيز كامل
نوفمبر	١٩٧١	:	بنك القلق للأستاذ توفيق الحكيم
ديسمبر	١٩٧١	:	نحو النور للأستاذ محمد زكى عبد القادر
يناير	١٩٧٢	:	هؤلاء علمونى للأستاذ سلامه موسى
فبراير	١٩٧٢	:	دموع فى عيون ضاحكة للأستاذ يوسف جوهر
مارس	١٩٧٢	:	من أخطاء القضاء للأستاذ حسن الجداوى
أبريل	١٩٧٢	:	عندما تحب المرأة للأستاذ حلمى مراد
مايو	١٩٧٢	:	خدعوك فقالوا للدكتور سعيد عبده
يونيو	١٩٧٢	:	رحلة الشرق والغرب للدكتور لويس عوض
يوليه	١٩٧٢	:	بلابل من الشرق للأستاذ صالح جودت
أغسطس	١٩٧٢	:	القصر المسحور للدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم

محتويات الكتاب

أغلال القلب ٥

الجراح الملهمة ٢٩

الشيخة مندورة ٤٧

شيطان المساء ٥٩

النداء الأعلى ٧٧

الورق الساحر ١١٥

حياة امرأة ١٢٩

اللحظة الحاسمة ١٦٣

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٤٣٨٨ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢